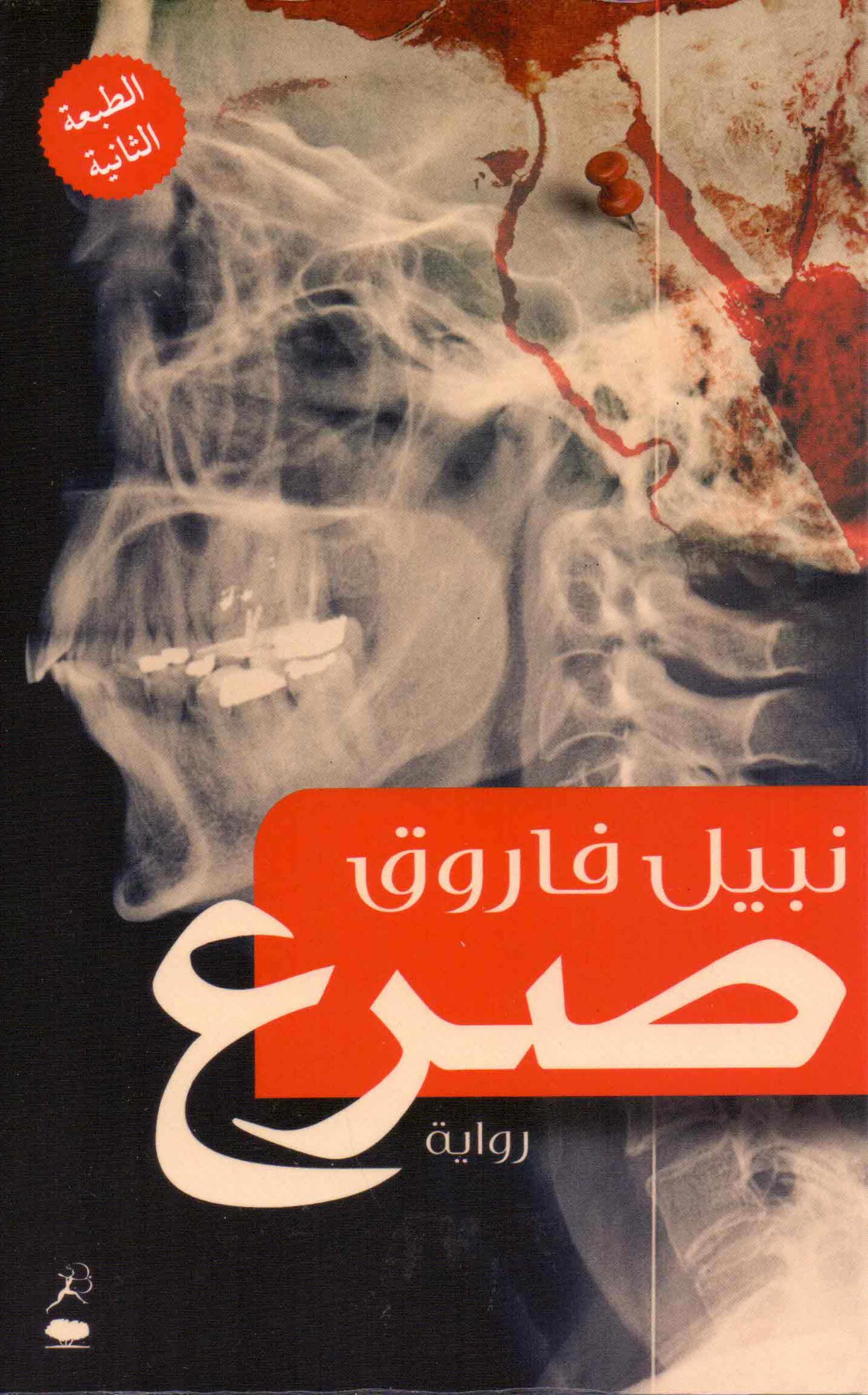


الطبعة
الثانية
نبيل فاروق
صرع
رواية

جمعتني الحياة بهما.. وجمعني حوار العلم معهما... تجاربهما العلمية أبهرتني، وأشعلت حماسي، على الرغم من خلفيتي الطبية.. وحديثهما عن أسرار وخفايا المخ البشري أشعلني.

ثم كانت التجربة، التي أذهلتني نتائجها...

كعالِمَين، كان كلُّ ما يشغلهما هو العلم، ونتائجه، وفوائده للبشرية.

وكروائي للخيال العلمي، ألهمني ما يبذلانه، بطرح ذلك السؤال، الذي منه تنبعث كل روايات الخيال العلمي...

ماذا لو؟!

ماذا لو أن الصرع ليس مجرَّد مرض؟!

ماذا لو أنه يخفى، في أعماق المخ البشري، ما لم نفهمه أو ندركه بعد؟!

وفي روايتي طرحتُ السؤال: أهناك سرٌّ تُخفيه عنا أمخاخنا، أم أنه مجرَّد.. صرع؟!

نبيل فاروق


www.bqfp.com.qa
978-99921-95-43-7
90100
9 789992 195437





تصميم: أحمد مراد

صرع

الطبعة الأولى يناير ٢٠١٣
الطبعة الثانية فبراير ٢٠١٣
دار بلومزبري ـ مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي: 9789992195437

طبع في مصر بشركة صحارا للطباعة



نبيل فاروق
صرع
رواية



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



مؤسسة قطر
Qatar Foundation

إلى من أوحت إليَّ أبحاثهما الرائدة المشتركة في هذا المضمار، بأحداث هذه الرواية...

إلى الصديقين العزيزين: الدكتور أحمد صبري عمار، والدكتور محمد علي أحمد.

١

صرخة قوية، ردَّدت أصداؤها جدران ذلك القسم، في أحد المستشفيات الكبرى، ودفعت طاقم التمريض إلى العَدْو نحو حجرة في نهاية ممر طويل، حيث سقطت فتاة في الثانية عشرة من عمرها أرضًا، مصابة بتشنجات عنيفة، جعلتها أشبه بحيوان مفترس يحتضر، وقد زاغت عيناها إلى حدٍّ مخيف، وسال الزبَد من بين شفتيها؛ ليكمل تلك الصورة المفزعة.

وفي سرعةٍ تدربوا عليها، راح طاقم التمريض يسيطر على جسدها، وبعضهم يضع قطعة من المطاط بين فكيها، في حين انتحت أمها جانبًا، وراحت تبكي في مرارة، وهي تُردِّد في يأس:

ـ أمَا من نهاية لكل هذا؟! أمَا من خلاص؟!

استغرق الأمر خمس دقائق تقريبًا، بعد وصول الطبيب المعالِج، واستخدام العقاقير اللازمة، حتى هدأ جسد الفتاة، وغرق في بحر من عرق بارد غزير، واسترخت على فراشها، مفتوحة العينين، شاحبة الوجه، كما لو أنها في النزع الأخير من حياتها.

وفي مرارة يائسة، أجهشت الأم في بكاء متصل، جعل الطبيب المعالج يقترب منها، ويقول في إشفاق متعاطِف:

ـ لا بأس يا سيِّدتي.. لقد انتهت النوبة في سلام.

رفعت عينيها المغرورقتين بالدموع إليه، وهي تغمغم في بؤس:

ـ ولكنها ستعود.. إنه عذاب لا ينتهي.. لقد حاولنا.. صدقني.. لقد حاولنا كل شيء، ولكن...

لم تستطع إكمال عبارتها، وهي تجهش بالبكاء مرة أخرى، فربَّت على كتفها في رفق، محاوِلًا تهدئتها، وهو يقول في تعاطف:

ـ لا تفقدي الأمل يا سيِّدتي.. الأبحاث في مجال علاج الصرع لا تتوقَّف، والعلاجات تتطوَّر في كل يوم.

أجابته، ويأسُها يتزايد:

ـ لقد جربنا كل شيء.. كل شيء.. حتى الأبحاث التي ما زالت قيد التطوير، جازفنا بتجربتها.. كل الأدوية والعقاقير، التي وصفها الأطباء، استخدمناها بكل دقة وانتظام، عبر عشر سنوات، من دون أن يُسفر هذا إلا عن زيادة عدد النوبات.

غمغم، وكأنه غير مقتنع حتى بما يقول:

ـ الأبحاث لم تتوقَّف.

أجابته في شيء من الحِدة، على الرغم من بكائها:

ـ وكذلك النوبات.

ربَّت على كتفها مرة أخرى، من دون أن يجد لديه ما يمكن أن يضيفه، واستدار يهمُّ بالانصراف، إلا أنها أمسكت ذراعه فجأة، في قوة آلمته، وهي تقول في انفعال:

ـ أرجوك.. لا تتركني الآن.. إنها ابنتنا الوحيدة، وزوجي رجل أعمال ميسور، وسنبذل ثروتنا كلها، إن اقتضى الأمر، في سبيل تخليصها من هذا العذاب.

تردَّد الطبيب، وهو يقول:

ـ سيِّدتي.. المشكلة ليست مشكلة نقود.. إنها مشكلة المرض نفسه.. كل الأبحاث تقول إن هناك بؤرة صرع في المخ، لا تنتظم مع الإيقاع الطبيعي الذي ينبغي أن تكون عليه إشاراته، وتنطلق أحيانًا عشوائيًّا، في موجات قوية عنيفة، تصيب المريض بتلك النوبات، ولكن المخ البشري يا سيِّدتي ما زال أكثر أعضاء الجسد غموضًا، على الرغم من الأبحاث التي تُجرى عليه، منذ عشرات السنين.

حاول تخليص ذراعه من يدها، وهو يشرح لها ما شرحه، بكلمات بسيطة، يمكن للشخص غير المتخصِّص استيعابها، إلا أنها ازدادت تشبثًا بذراعه، وهي تقول في ضراعة:

ـ ولكن هناك حتمًا وسيلة ما.. أخبرتك أننا مستعدون لفعل أي شيء.. أي شيء على الإطلاق.

حاول مرة أخرى تخليص ذراعه من يدها، بعد أن بدأ يشعر بالألم، وهو يقول:

ـ سيِّدتي، لو أن هناك وسيلة، ما تردَّدت في إخبارك بها.. ولكن..

قاطعته، وأصابعها تنغرز في ذراعه أكثر، وكأنها تخشى أن تتركها، فيضيع معها الأمل:

ـ لماذا تظننا أتينا بها إلى هنا؟! لقد اعتدنا منذ عشر سنوات التعامل مع نوبات الصرع التي تصيبها.. اعتدناها عندما كانت تصاب بها مرة أسبوعيًّا، وحتى عندما ارتفع العدد إلى ثلاث نوبات في الأسبوع الواحد.. لقد كادت تقطع لسانها ذات مرة، في إحدى النوبات، فقط لأن تلك القطعة المطاطية، التي نضعها في فمها مع النوبات، كانت بعيدة عن متناول أيدينا.. ولكنها صارت تصاب بالنوبة يوميًّا، وصار من اللازم أن يكون هناك شخص إلى جوارها طوال الوقت؛ حتى لا تؤذي نفسها في أثناء النوبات.

غمغم، وقد بدأ يحاول إبعاد أصابعها عن ذراعه بالقوة:

ـ سيِّدتي.. إنني...

لم تمهله ليتمَّ عبارته، وهي تواصل، وكأنها لم تسمعه:

ـ الآن صارت تصاب بنوبات الصرع ثلاث مرات يوميًّا، على الرغم من تناولها العقاقير والأدوية بانتظام، وحتى ما بين النوبات، صارت عدوانية عنيفة، سريعة الغضب، حادَّة الطبع.. ابنتنا لم تكن كذلك قطُّ.. أرجوك أيها الطبيب.. أرجوك.

شعر أنه سيضطر إلى كسر أصابعها، حتى يبعدها عن ذراعه، فنبش في ذهنه عن كل ما قرأه أو سمعه، عن الأبحاث الخاصة بمرضى الصرع، الذي يعاني منه الملايين عبر العالم كله، فلم يجد سوى أن يقول، والألم يبدو واضحًا في صوته:

ـ الواقع أن هناك طبيبًا...

قاطعته في لهفة، وهي تغرز أصابعها في ذراعه أكثر، من فرط الانفعال:

ـ طبيب ماذا؟!

قرَّر أخيرًا أن يتوقَّف عن المقاومة، ويحتمل ذلك الألم، الذي تسببه أصابعها الرفيعة في ذراعه، وهو يزفر، قائلًا:

ـ الواقع أنه جرَّاح.. جرَّاح للمخ والأعصاب.. لقد تدرَّب في بداية حياته في «اليابان»، على يد أكبر جرَّاحي المخ والأعصاب في العالم، و....

قاطعته في لهفة أكثر:

ـ لست أهتم كثيرًا بسماع قصة حياته.. سؤالي الوحيد هو: «هل لديه جديد في علاج حالة ابنتي؟!».

زفر مرة أخرى، وهو يقول في ألم:

ـ إنه يجري بعض الأبحاث، منذ زمن طويل، حول حالات الصرع، وإمكانية علاجها جراحيًّا، عن طريق استئصال البؤرة الصرعيَّة

من المخ، ولكن حتى تحديد تلك البؤرة الصرعيَّة ليس بالأمر السهل، حتى يمكن التعامل معها جراحيًا.

هتفت بكل لهفتها:

ـ ولكنه يجري الأبحاث في هذا الشأن، و...

قال في ألم:

ـ لم تكتمل أباحثه في هذا الشأن؛ لأن...

قاطعته في مزيج من اللهفة والضراعة والانفعال:

ـ سنذهب إليه.. سنذهب إليه في أي مكان في العالم.

غمغم في عصبية:

ـ سيِّدتي.. الأمر ليس بهذه البساطة.

هتفت بصوت مرتفع، حمل كل مشاعرها دفعة واحدة:

ـ سنذهب إليه.. أخبرنا فقط من هو، وكيف نصل إليه.. وأين؟

ارتفع صوت إحدى مشرفات التمريض في هذه اللحظة، وهي تقول:

ـ دكتور سامح.. رسام المخ الكهربي أصابه الخلل مرة أخرى، من دون أي تفسير منطقي.

قال بصوت مرتفع، وكأنه وجد الخلاص على يد مشرفة التمريض:

ـ أجري اتصالكِ بالقسم الفني، وسأحضر للمتابعة فورًا.

ثم التفت إلى الأم مرة أخرى، قائلًا في صرامة:

ـ سيِّدتي.. أنت تعوقين عملي، وهناك مرضى آخرون.

بدت أكثر منه صرامة، وهي تقول:

ـ أخبرني ما أريد أولًا.

ولم يجد أمامه من سبيل آخر.

أي سبيل.

* * *

استمع الدكتور أحمد عامر إلى كل ما وصفه الدكتور سامح في اهتمام بالغ، وهما يتحدثان عبر شبكة الإنترنت، قبل أن يسأله بكل اهتمامه:

ـ هل تتزايد حدة نوبات الصرع، مع زيادة عددها؟!

حملت صورة الدكتور سامح على الشاشة كل توتره، وهو يجيب:

ـ بالفعل.. تستطيع أن تقول: «إنها واحدة من الحالات، التي فقدنا السيطرة عليها تمامًا، ولم يعد لدينا سبيل للتعامل معها، سوى أن نخضعها للعقاقير المهدئة طوال الوقت، وهذا لن يصلح كعلاج، على المدى الطويل».

تراجع الدكتور أحمد، يداعب لحيته القصيرة، وهو يغمغم:

ـ بالطبع.

واستغرق في تفكير عميق، وهو شارد البصر تمامًا، فلزم الدكتور

سامح الصمت بدوره؛ ليمنحه فرصة اتخاذ القرار، وإن لم يستطع منع أو كبح ذلك التوتر، الذي سرى في كيانه، وفاض على ملامحه، قبل أن يعتدل الدكتور أحمد دفعة واحدة، ويقول في حزم:

ـ أظنها حالة مثالية؛ لتجربة العلاج الجراحي الجديد.

تضاعف توتر الدكتور سامح، وهو يقول:

ـ ولكنك أخبرتني أن نتائجه غير مضمونة.

أجابه بنفس الحزم:

ـ هذا لا يعني أنها فاشلة.. الأمر يستند إلى سنوات من البحث والدراسة.. لقد قضيت ما يزيد من نصف عمري، في دراسة المخ، وسبل تعامله مع الجسد، ولو أن هناك أملًا، مهما بلغت ضآلته، في أن يشفي العلاج الجراحي تلك الفتاة، فهو أفضل ألف مرة، من أن تبقى سجينة هذا العذاب.

تردَّد الدكتور سامح لحظات، قبل أن يقول في حذر:

ـ هل أنصحهم بالسفر إليك إذن؟!

بدا الدكتور أحمد شديد الحزم، وهو يجيب:

ـ كلَّا.

تراجع الدكتور سامح في دهشة، مكرِّرًا الكلمة:

ـ كلَّا؟!

مال الدكتور أحمد نحو شاشة الكمبيوتر، وهو يقول بكل صرامة:

- إنهم مصريون، وواجبي أن أذهب أنا إليهم، لا أن يحضروا إلى هنا.

غمغم الدكتور سامح في دهشة:

- لديهم القدرة المالية على هذا.

أجابه وهو يعتدل، ويُشعل غليونه في حزم:

- ليست مسألة قدرة.

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يكمل:

- إنها مسألة مبدأ.

ولم يُضِف الدكتور سامح حرفًا واحدًا..

* * *

- ألديك الحل؟!

ألقتِ الأمُّ السؤال على الدكتور أحمد، بكل لهفة الدنيا، فنفث دخان غليونه في بطء، وهو يتطلَّع إليها، قبل أن يجيب في هدوء:

- تستطيعين القول بأنها تجربة جراحية؛ للوصول إلى الحل، فنظريتي تعتمد على تحديد بؤرة الصرع، عبر الفحص الكهربي للمخ، والاستعانة بالرسوم المقطعية له، وبعدها نقوم باستئصال تلك البؤرة، ثم ننتظر النتائج.

حاولت الأم أن تقول شيئًا آخر، ولكن زوجها استوقفها، وهو يواجه الدكتور أحمد، قائلًا فيما أراده أن يكون حازمًا، ولكنه خرج من بين شفتيه منفعلًا:

ـ اسمع يا دكتور أحمد.. أنا طلعت منصور.. أحد كبار رجال الأعمال في مصر، ويمكنني نقل ابنتي شيماء إلى أي مكان في العالم، لو أن هناك أملًا في شفائها، وتخليصها من عذابها هذا.. ولقد زرنا بالفعل كثيرًا من الأطباء، في مختلف أنحاء العالم، ولم أسمع من أحدهم ما ذكرته.

ظل الدكتور أحمد هادئًا، وهو يستمع إليه، ثم قال:

ـ أخبرتك يا سيِّد طلعت أنها تجربة جراحية جديدة، لم يلجأ إليها أحد من قبل.

سأله الأب، بصوت مرتجف، من فرط التوتر:

ـ أتعني أنها أوَّل مرة ستجري فيها هذه الجراحة؟!

نفض الدكتور أحمد التبغ المحترق من غليونه، وأعاد حشوه بتبغ جديد، وهو يجيب، بكل الثقة والهدوء:

ـ بالضبط.

تبادل الأب والأم نظرة متوترة، قبل أن تغمغم الأخيرة في خوف:

ـ وستختبرها على ابنتنا الوحيدة.

أشعل غليونه بنفس الهدوء، مجيبًا:

ـ لهذا أتيت.

تبادلَا نظرة أكثر توترًا، فنفث هو دخان غليونه، ومال نحوهما، يسألهما في حزم:

ـ والآن، هل سأحصل على موافقتكما على إجراء الجراحة، أم أعود من حيث أتيت؟!

شحب وجهاهما، وهما يتطلعان بعضهما إلى بعض، ثم إليه، قبل أن يغمغم الأب في يأس:

ـ أمَا مِن مخاطرة؟!

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، وهو يجيب في حزم:

ـ ما من تدخل جراحي بلا مخاطر.. حتى في العمليات البسيطة.

ثم اعتدل، ونفث دخان غليونه مرة أخرى، قبل أن يضيف:

ـ ووفقًا للتاريخ المرضي أمامي، تطوَّرت حالات الصرع عند ابنتكم، إلى حدٍّ لا يمكن السكوت عليه، ولو حسبنا الأمر على نحو عملي، فسنجد أننا، وفي كل الأحوال، أمام احتمالين، لا ثالث لهما، لو تجاوزنا عن المخاطر الجراحية العادية.. إما أن تشفي الجراحة ابنتكم مما تعانيه، منذ ما يقرب من عشر سنوات، أو تظل على حالها، حتى يمكن التوصُّل إلى علاج آخر.. فماذا تُفضِّلان؟!

تبادلَا نظرةً أخرى، شديدة القلق والتوتر، قبل تغمغُم الأم في يأس:

ـ وكيف يمكن أن نمنحك موافقتنا؟!

أجاب بكل الحزم:

ـ كتابيًّا.

وحصل على الموافقة.

* * *

بكل الحيرة، تطلع الدكتور سامح، في حجرة العمليات الجراحية، إلى ذلك الجزء من خلايا مخ شيماء، والذي بدأ الدكتور أحمد في استئصاله، والذي بدا له أشبه بخلايا صحية سليمة، لا توحي بأي مرض، وليست بها أية اختلافات عما حولها من خلايا.

كانت الاختبارات التي أُجريت، وخرائط المخ الكهربية، قد أشارت إلى أن تلك الخلايا تحوي بؤرة الصرع، ولكن بالنسبة إلى العين المجرَّدة، كانت مجرَّد خلايا عادية.

عادية تمامًا.

أما الدكتور أحمد فراح يجري الجراحة في دقة وهدوء، يوحيانِ بأنه شديد الثقة فيما يقوم به..

وبأصابع دقيقة خبيرة، وعلى نحو شديد البراعة، يشفُّ عن تمكُّنه وخبرته، راح الدكتور أحمد يستأصل تلك الخلايا، وبحرص تمامًا، عبر الميكروسكوب الجراحي، على فصلها عن كل ما حولها، حتى انتزعها من مكانها، والتفت إلى الممرضة، التي أسرعت

تحضر وعاءً معقَّمًا، يحوي سائل الحفظ، فوضع داخله تلك الخلايا التي استأصلها، وترك الممرضة تغلق الوعاء في إحكام، ثم تنقله في حرص إلى مكان آمن، وهو ينهي جراحته بنفس الهدوء، والدكتور سامح إلى جواره يتساءل: هل يمكن أن تنجح تلك التجربة الجراحية؟!

هل؟!

ـ كيف يمكننا أن نشكرك؟!

هتفت الأم بالعبارة، بكل فرحة الدنيا، وعلى الرغم من مكانتها الاجتماعية المتميِّزة، حاولت أن تنحني؛ لتقبيل يد الدكتور أحمد، الذي جذب يده في سرعة، وابتسم ابتسامة هادئة، وهو يقول:

ـ المفترض أن أشكركما أنا.

بدا الأب شديد السعادة، وهو يهتف في حرارة:

ـ شيماء لم تصب بنوبة صرع واحدة، طوال الأسبوع الذي أعقب الجراحة، وهي لم تبد طوال السنوات العشر الأخيرة، بهذا الهدوء والارتياح، على الرغم من أنها لم تغادر المستشفى بعد.

وبكت الأم في فرحة، وهي تقول:

ـ إنها تنام مبتسمة.. يا لصغيرتي الحبيبة، لم أرها تنام مبتسمة، منذ كانت في العاشرة من العمر.

وبكل الحماس، أخرج الأب دفتر شيكاته البنكية، قائلًا:

ـ أعلم أنك رفضت تقاضي أية أتعاب، نظير الجراحة الرائعة التي أجريتها، ولكن...

قاطعه الدكتور أحمد في صرامة:

ـ أخبرتك منذ البداية، أنها ليست مسألة مالية.

ثم مال نحو الوالدين، مستطردًا:

ـ لقد منحتماني فرصة اختبار نظريتي، وتطبيق جراحتي التجريبية الجديدة، وصحيح أن ابنتكما لم تصب بنوبة صرع واحدة، طوال أسبوع كامل، ولكن هذا لا يكفي إثبات نجاح هذا النوع من العلاج.. الأمر ما زال يحتاج إلى مزيد من المتابعة والفحص، إلى جانب فحوص معملية عديدة.

عاودهما القلق، والأم تغمغم، ممسكة يد زوجها في قوة:

ـ وهل ستتعرَّض ابنتنا لكل هذا؟!

ابتسم، قائلًا:

ـ أظنه أهون كثيرًا من كل ما تعرَّضت له من قبل.. ولكن لو ثبت أننا قد استأصلنا البؤرة الصرعية بالفعل، فسيعني هذا أن لدينا بؤرة صرع مؤكَّدة، في خلايا مخية، يمكن أن نجري عليها عشرات الفحوص والاختبارات.

واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

ـ ومن يدري، ربما كانت هذه هي البداية.

لم يدر لحظتها كم كانت عبارته شديدة الدقة.

فهذه بالفعل كانت البداية.

بداية أخطر كشف في حياته.

على الإطلاق.

٢

ابتسامة متوترة، تلك التي ارتسمت على وجه الدكتور محمد علوي، أستاذ الفيزياء التجريبية بجامعة القاهرة، وهو يصافح الدكتور أحمد، في بَهْو ذلك الفندق العريق، في حي مصر الجديدة، قبل أن يقول في حذر، امتزج بكثير من الفضول:

ـ يسعدني أن ألتقي بك يا دكتور أحمد.. لقد قرأت كثيرًا من أبحاثك الطبية، عبر شبكة الإنترنت، منذ تلقيت اتصالك، الذي تطلب فيه مقابلتي لأمر مهم.

ابتسم الدكتور أحمد بدوره، وهو يصافحه، قائلًا:

ـ أنا أيضًا قرأت كثيرًا من أبحاثك، حول التأثيرات الكهرومغناطيسية، على المخ البشري.. تفضَّل بالجلوس.

جلس الدكتور محمد، على الطرف الآخر من المائدة الصغيرة، وهو يسأل بنفس تلك اللهجة، التي تجمع ما بين الفضول والحذر:

ـ يبدو لي أننا نعمل في المجال نفسه، ولكن من اتجاهين مختلفين.. أليس كذلك؟!

أشعل الدكتور أحمد غليونه في بطء، وهو يجيب في اقتضاب:

ـ هذا صحيح.

تطلَّع الدكتور محمد إلى دخان الغليون في قلق، ولوَّح بيده أمام وجهه؛ ليبعد دخانه عن أنفاسه، وهو يسأل في توتر:

ـ ألهذا كان اللقاء؟!

نفث الدكتور أحمد دخان غليونه بعيدًا، ثم اعتدل، يقول في اهتمام:

ـ الواقع أنني قد قضيت نصف عمري، وربما أكثر، في دراسة المخ البشري، والأمراض التي تصيبه، منذ الولادة، وحتى الأورام الخبيثة.. درستُ كل ما يتعلق به، وكل الأبحاث التي نشرت بشأنه، وحفظت تشريحه عن ظهر قلب، وأجريت فيه مئات العمليات الجراحية، حتى إنني أزعم استطاعتي إجراء جراحة دقيقة فيه، وأنا مغمَض العينين.

تململ الدكتور محمد في مجلسه، وقد بدت له العبارة الأخيرة مبالِغة، وغير دقيقة علميًّا، إلا أنه لم يقاطع الدكتور أحمد، الذي واصل حديثه بنفس الاهتمام:

ـ ودراستي هذه لم تقتصر على الجانب التشريحي والباثولوجي للمخ البشري فحسب، ولكنها امتدت إلى دراسة خلاياه،

ووصلاته العصبية، وفصوصه المختلفة، وسلوكها المنفرد والمشترك، وكل شيء يتعلق به.. كل شيء تقريبًا.

غمغم الدكتور محمد:

ـ لك دراسات وأبحاث شيقة ومتقدِّمة، في هذا المضمار.

أشار الدكتور أحمد بسبَّابته، قائلًا:

ـ ولكنك لم تقرأ بحثي الأخير.

قالها، ثم مال نحوه بشدة، وهو يضيف:

ـ لأنه لم يُنشر بعد.

أبعد الدكتور محمد وجهه، وهو يغمغم:

ـ فيم يتعلق؟!

اعتدل الدكتور أحمد، مجيبًا في حزم:

ـ بالصرع.. مرض الصرع.

ران الصمت عليهما لحظة، بعد عبارة الدكتور أحمد الأخيرة، وتطلع الرجلان بعضهما إلى بعض، وكأن كلًّا منهما يدرس رد فعل الآخر، قبل أن يقول الدكتور محمد في بطء:

ـ أنا وفريقي نحاول إجراء بعض الأبحاث؛ عن تأثير الموجات الكهرومغناطيسية، التي صارت تحيط بنا من كل جانب، على تصاعد هذا المرض، الذي يزعج الأطباء منذ زمن طويل.

هتف الدكتور أحمد في حماس:

ـ بالضبط.

ثم عاد يميل نحوه، مضيفًا:

ـ لهذا كان من الضروري أن نلتقي.

أطلَّت نظرة متسائلة حَذِرة، من عيني الدكتور محمد، فاعتدل الدكتور أحمد، وهو ينفث دخان غليونه، قائلًا:

ـ إنني أجري بحثًا مهمًّا، حول القضاء على مرض الصرع جراحيًّا، عن طريق استئصال البؤرة الصرعية من المخ.

تساءل الدكتور محمد، وقد بدأ الحديث يثير اهتمامه العلمي:

ـ وكيف يمكنك تحديدها بدقة؟!

أجابه في سرعة:

ـ لقد استخدمت الخرائط الكهربية للمخ، لدى مريضة كانت تصاب بأكثر من نوبة صرعية يومية، مما جعلها شخصية عدوانية عصبية انفعالية، وأصابها بحالة إعياء، أسقطها في اكتئاب حادٍّ.. وبعد استئصال البؤرة من مخها، عادت إلى شخصيتها الطبيعية، ولم تصبها نوبة صرع واحدة منذ ما يقرب من عام كامل.

كاد الدكتور محمد يقفز من مقعده، من فرط الانفعال، وهو يهتف:

ـ حقًّا؟! هذا إنجاز طبي مذهل، على كل المستويات.. يمكنك أن تنال جائزة «نوبل» في الطب، لو نشرتَ هذا البحث.

تلفَّت الدكتور أحمد حوله في انزعاج، وخصوصًا مع العيون العديدة، التي التفتت إليهما، وقال في توتر:

ـ ولكن البحث لم يكتمل بعد.

قال الدكتور محمد بنفس الانفعال:

ـ تقول: «إنها، وبعد الجراحة، لم تصب بنوبة صرع واحدة، لما يقرب من عام»!!

أجابه الدكتور أحمد في خفوت؛ محاولًا تهدئة انفعاله:

ـ لا يوجد ما يضمن نجاح الجراحة، في الحالة التالية.

تراجع الدكتور محمد في مقعده مصدومًا، وهو يسأل:

ـ ولماذا؟!

حاول الدكتور أحمد أن يبتسم، وهو يقول:

ـ اهدأ، وسأخبرك.

بذل الدكتور محمد طاقة هائلة؛ للسيطرة على انفعاله، وهو يغمغم:

ـ كلي آذان مصغية.

التقط الدكتور أحمد نفَسًا عميقًا من الهواء، قبل أن ينفض التبغ المحترق من غليونه، ويقول:

ـ هذه الجراحة الأخيرة، جعلتني أنتبه إلى حقيقة مهمة، غابت عنا لعقود، قضيناها في دراسة المخ البشري، باعتباره العضو الأكثر حيوية على الإطلاق، من بين كل أعضاء الجسد.. وتلك الحقيقة هي أن المخ عضو يختلف عن أي عضو آخر، في جسد أي كائن حي؛ لأنه ليس عضوًا حيويًّا فحسب، يمكنك أن تدرس خلاياه ووظائفها، بل هو أيضًا جهاز إرسال قوي، يبث الإشارات طوال الوقت إلى كل أعضاء الجسد، وخلاياه الرمادية والبيضاء ليست مجرَّد خلايا يكفي أن نفحصها بكل ميكروسكوبات العالم، بل هي موصِّلات حيوية، تبث موجات كهرومغناطيسية طوال الوقت، ومن دون أن تتوقَّف لحظة واحدة، مما يعني أنه لكي يمكنك فهمها واستيعاب عملها المتواصل، لا يكفي أن تدرسها من الناحية الطبية فحسب، ولكن من الناحية الفيزيائية أيضًا.

غمغم الدكتور محمد، وحماسه يتزايد:

ـ هذا ما نحاول إثباته أيضًا.

مرة أخرى، مال الدكتور أحمد نحوه، قائلًا:

ـ أنتم تحاولون إثبات التأثيرات الكهرومغناطيسية الخارجية، على أداء المخ البشري، وأنا أسعى لفهم التأثيرات الكهرومغناطيسية، التي تنبع من خلايا المخ البشري.

عندما اعتدل الدكتور أحمد هذه المرة، مال نحوه الدكتور محمد، قائلًا:

ـ هل تعلم ماذا كان ينقص أبحاثنا؟!

أطلَّ السؤال من عيني الدكتور أحمد، فأجابه الدكتور محمد، مكملًا في حماس:

ـ أنت.

نطقها، فعاد الصمت يلفهما لحظات، وكلٌّ منهما يتطلع إلى عيني الآخر مباشرة، قبل أن يقول الدكتور أحمد في خفوت:

ـ أيعني هذا أننا قد اتفقنا؟!

مدَّ الدكتور محمد يده إليه، وهو يبتسم، قائلًا:

ـ بالتأكيد.

وتصافحا في قوة؛ ليعلنا أنها البداية.

البداية الحقيقية، لأغرب كشف.

وأخطر كشف.

* * *

ـ ما هذا بالضبط؟!

ألقى الدكتور أحمد سؤاله في حيرة، داخل ذلك المعمل الصغير، في حجرة من حجرات المنزل، الذي يمتلكه الدكتور محمد في قريته، والذي قرَّر الاثنان اتخاذه مكانًا لأبحاثهما المشتركة، فأشار هذا الأخير إلى جهاز كبير نسبيًّا، استقر على مائدة معدنية، عند ركن الحجرة، وهو يجيب في هدوء:

ـ إنه جهاز ياباني حديث، لديه حساسية فائقة، لالتقاط أية موجات كهرومغناطيسية حديثة، حتى إنه قادر على التقاط الإشارات الدقيقة، النابعة من أمخاخ فئران التجارب الصغيرة، ومن دون توصيلها بأية أسلاك.

تطلع الدكتور أحمد إلى الجهاز لحظات، ثم تساءل:

ـ ألهذا طلبت مني أن أترك هاتفي المحمول خارج الحجرة؟

أجابه، وهو يقوم بضبط الجهاز:

ـ هذا صحيح.. لقد اتخذت كل ما يلزم، حتى لا يحدث تداخل كهرومغناطيسي، يمكن أن يفسد نتائج تجاربنا.. لقد غلَّفتُ حتى كل جدران المعمل بألواح من الرصاص، لمنع وصول أية موجات كهرومغناطيسية خارجية.. وسنُوقف بالطبع كل أجهزة الكمبيوتر، خلال إشارات أمخاخ فئران التجارب.

ابتسم الدكتور أحمد، وهو يقول:

ـ هكذا يعمل العالم الحقيقي.

تجاهل الدكتور محمد هذا التعليق، وهو يضغط على الزر الأخير في جهازه، قائلًا في اهتمام شديد:

ـ دعنا نختبر الجهاز أوَّلًا.

بدأ الجهاز عمله على الفور، وألصق الدكتور محمد ذلك القفص المعدني الصغير، الذي يحوي فئران التجارب، التي بدأت مؤشرات

الجهاز الرقمية في رسم إشاراتها المخية الدقيقة، وفصلها بعضها عن بعض، فغمغم الدكتور أحمد في حماس:

ـ من الواضح أنه يعمل في كفاءة.

انعقد حاجبًا الدكتور محمد في شدة، وهو يراقب الإشارات، التي ترتسم على الشاشة الرقمية للجهاز، وسأل الدكتور أحمد في توتر:

ـ هل ترتدي ساعة رقمية؟!

اندهش الدكتور أحمد للسؤال، وغمغم مجيبًا:

ـ إنني أفضل دومًا الساعات العادية.

تحسَّس الدكتور محمد جيوبه في توتر، قبل أن يسأل مرة أخرى:

ـ هل تحمل إذن أجهزة إلكترونية، من أي نوع؟!

أجابه الدكتور أحمد في توتر، هذه المرة:

ـ لقد طلبت مني ترك كل شيء خارج المعمل، وأنا أدرك أهمية هذه التجربة.

تلفَّت الدكتور محمد حوله بنفس التوتر، وهو يغمغم:

ـ عجبًا!!

اقترب منه الدكتور أحمد، يلقي نظرة أقرب على الشاشة الرقمية للجهاز الياباني، وهو يسأله في قلق:

ـ أهناك خطأ ما؟!

أشار الدكتور محمد إلى شاشة الجهاز، مجيبًا:

ـ الحجرة لا تحوي سوانا، وثلاثة فئران تجارب، وعلى الشاشة تجد إشارتين قويتين للموجات الكهرومغناطيسية، التي يبثها مخك ومخي، وثلاث إشارات ضعيفة لما تبثُّه أمخاخ فئران التجارب الثلاث.. أما هنا، فستجد إشارة سادسة، أكثر ضعفًا من الإشارات الأخرى، ولكنها تحمل نفس الشكل البياني لإشارات المخ.

تراجع الدكتور أحمد في دهشة، في حين التفت إليه الدكتور محمد في توتر، متابِعًا:

ـ هذا يعني أن هناك مخًّا سادسًا هنا.

تلفَّت الدكتور أحمد في توتر مماثل، وهو يقول:

ـ ربما هو حيوان صغير، تسلَّل إلى هنا، و...

قاطعه الدكتور محمد في عصبية:

ـ الأرفف هنا كلها معلَّقة، حتى لا يختفي أي شيء أسفلها، والمكان كله واضح للأعين كما ترى، ومعزول عن الخارج تمامًا.

عاد الدكتور أحمد يتلفَّت حوله، مغمغمًا في قلق متزايد:

ـ من أين تأتي هذه الإشارة السادسة إذن؟!

بدأ الدكتور محمد يضغط عدة أزرار في الجهاز، وهو يقول:

ـ فئران التجارب كلها من الذكور، وإلا لافترضت أن أحدها يحمل جنينًا.

وعاد حاجباه ينعقدان في شدة، وهو يطالع الشاشة، مستطردًا:

ـ والإشارة السادسة لا تأتي من ناحيتهم على أية حال.

سأله الدكتور أحمد في لهفة، وهو يحدِّق في الشاشة:

ـ من أين تأتي إذن؟!

تطلَّع الدكتور محمد إلى الشاشة بضع لحظات، ثم أدار بصره إلى وعاء متوسط الحجم، يستقر على رفٍّ مجاور للباب، وهو يجيب:

ـ من هذا الوعاء، الذي أحضرته معك.

انعقد حاجبَا الدكتور أحمد هذه المرة، وهو يقول:

ـ مستحيل تمامًا!

ألقى الدكتور محمد نظرة ثانية على الشاشة، وقال في حزم:

ـ الإشارة تأتي منه.. ليس هناك أدنى شك في هذا.

ثم تساءل في صرامة:

ـ ما الذي يحويه هذا الوعاء؟!

هزَّ الدكتور أحمد رأسه في قوة، وهو يقول في حزم:

ـ مستحيل أن تأتي أية إشارة حيوية من هذا الوعاء؛ لأنه لا يحوي أي شيء حي.

سأله الدكتور محمد، وهو يلتقط الوعاء في حرص:

ـ ما الذي يحويه إذن؟!

أجابه الدكتور أحمد، وهو يراقب الوعاء في قلق:

ـ إنها تلك البؤرة الصرعية، التي استأصلتها من مخ مريضتي شيماء طلعت، منذ أكثر من عام.

غمغم الدكتور محمد، وهو يقترب بالوعاء من الجهاز الياباني:

ـ هل يمكن أن...

قاطعه الدكتور أحمد في حدة:

ـ مستحيل!! الخلايا، أيًا كانت، لن تبقى حية، بعد كل هذه الفترة.

لم يعلق الدكتور محمد على عبارته، ولكن الإشارة السادسة تزايدت قوتها، مع اقتراب الوعاء من الجهاز، ثم انخفضت شدتها، عندما أبعده الدكتور محمد عن الجهاز.

وهنا، اتسعت عينا الرجلين معًا.

فالأمر كان يتعارض مع كل قوانين الطب والفيزياء.

وبشدة.

٣

ابتسامة كبيرة، علت وجه شيماء، وهي تستغرق في نوم عميق، لم تنعم به طوال سنوات طويلة من عمرها..

وابتسامة أكبر، ارتسمت على شفاه أبويها، وهما يتطلعان إليها في سعادة وارتياح، قبل أن تغلق الأم باب حجرتها في حرص، وهي تتراجع مع زوجها، مغمغمة بصوت مختلج:

ـ يا لابنتي الصغيرة الحبيبة! لم أحلم حتى يومًا بأن تصير على ما هي عليه الآن.. كل ما كنت أحلم به هو أن تخف حدة نوبات الصرع اللعينة تلك، لا أعادها الله ـ سبحانه وتعالى.

ربَّت الأب على ظهرها في حنان، وهو يقول:

ـ كم أشعر بالامتنان للدكتور أحمد هذا.. وكم أتمنى أن أجد سبيلًا للعرفان بجميله، بعد أن رفض تقاضي أي أجر، مقابل ما فعله.

رفعت الأم رأسها إليه، قائلة:

ـ لقد فكَّرت في هذا طويلًا، وأظنني قد وجدت السبيل المناسب.

سألها الأب في لهفة:

ـ وما هو؟!

أجابته، وهما يبتعدان عن حجرة شيماء؛ حتى لا يوقظها حديثهما:

ـ قرأت أن الأبحاث العلمية والطبية تحتاج إلى كثير من التمويل، وأن الباحثين يسعون دومًا إلى مؤسسات كبيرة؛ لتمويل أبحاثهم.

تألَّقت عيناه بنفس اللهفة، وهو يقول:

ـ إذن فأنت تفكرين في نفس ما راودني.

هتفت في حماس، وبصوت خافت نسبيًّا:

ـ تمويل أبحاثه.. أليس كذلك؟!

أشار بسبَّابته، وهو يقول بابتسامة تحمل كل الراحة:

ـ ليس هذا فحسب، ولكن ما فعله مع ابنتنا، جعلني أعرض الأمر بالفعل على مجلس إدارة الشركة، وأنت تعلمين أن أحد كبار المساهمين، لديه ابنٌ يعاني من الصرع أيضًا.. صحيح أن حالته ليست بالشدة التي كانت عليها حالة شيماء، ولكنه ليس مستعدًّا للانتظار، حتى يبلغ هذه المرحلة المؤسفة.

ارتجف جسدها انفعالًا، وهي تقول:

ـ هل تعني أن...

لم تستطع إتمام عبارتها، من فرط انفعالها، فاتسعت ابتسامته قليلًا، وهو يؤمن برأسه إيجابًا، مجيبًا سؤالها، الذي لم يكتمل:

ـ ستقوم الشركة برعاية أبحاث الدكتور أحمد رعاية كاملة.

تهلَّلت أساريرها، وجسدها كله يرتجف، في حماس وانفعال، ووثبت تتعلَّق بعنقه، وتمطر وجهه بقبلاتها.

في نفس تلك اللحظة، وبينما استغرقت شيماء في نومها العميق، بدا جزء من جدار حجرة نومها، وكأنه يتموَّج على نحو عجيب، كما لو أن أمامه حاجزًا من ماء غير مستقر، قبل أن يعبر شيء أشبه بالظل البشري، عبر الجدار، الذي عاد يستقر فور عبوره.

ولثوانٍ، ظل يبدو كظلٍّ بلا جسد، قبل أن يتجسَّد في هيئة آدمي طويل القامة، إلى حدٍّ يفوق مستويات الطول المعتادة، وشديد النحول إلى حدٍّ عجيب، وبدا وجهه شاحبًا، كما لو كان قد خرج من قبره على التوِّ، وهو يقف متطلِّعًا إلى شيماء بلا أية انفعالات، بعينيه الواسعتين، الشديدتي السواد، والمكوَّنة من كتلة واحدة، بلا قزحية.

ثم، وفي بطء، اقترب من شيماء، وأخرج لوحًا شفافًا من ثيابه السوداء، وضعه فوق رأسها مباشرة، فارتسمت عليه في سرعة رموزًا عجيبة، وبدا كما لو أنه قد تحوَّل إلى ما يشبه لوح أشعة «رونتجن»، وظهر عليه مخ شيماء في وضوح.

ولثوانٍ، استمر في وقفته، وكأنما يسجِّل كل تفاصيل مخها، قبل

أن يعتدل، ويدسَّ ذلك اللوح في ثيابه، ثم يلتفت إلى الجدار، الذي عاد يتموَّج، مع تحوُّل جسده مرة أخرى لما يشبه الظل، وهو يَعبر الجدار، الذي واصل تموجه لحظة، ثم استقر تمامًا.

كل هذا، وشيماء ما زالت مستغرقة في نومها العميق، وعلى شفتيها ابتسامة..

نفس الابتسامة.

* * *

ـ مستحيل!!

ردَّد الدكتور محمد الكلمة أكثر من مرة، وهو يحدِّق في شاشة جهازه، التي تسجِّل تلك النبضات الكهرومغناطيسية شديدة الضآلة، والتي تنبعث من ذلك الجزء من خلايا مخ شيماء، الذي يحتفظ به الدكتور أحمد، والذي بدا أكثر ذهولًا منه، وهو يحدِّق في تلك الخلايا البسيطة، قبل أن يغمغم في انفعال:

ـ ليس من المفترض أن تبث تلك الخلايا أية نبضات كهرومغناطيسية أو غيرها؛ فهي محفوظة هنا منذ عدة أشهر.

أشار الدكتور محمد إلى الشاشة، قائلًا في توتر:

ـ لسنا أمام ما يفترض، ولكن ما هو حادث بالفعل.. هذه الخلية ما زالت تعمل، وتبث إشاراتها.

هتف الدكتور أحمد:

ـ ولكن هذا مستحيل! إنه يتعارض مع كل ما درسه العلماء، منذ عشرات السنين!

اعتدل الدكتور محمد، والتفت إليه في صمت، وملامحه تشفُّ عن كل ما يعتمل في نفسه، قبل أن يقول:

ـ وهذا يعني أننا أمام كشف جديد.. معجزة طبية علمية، قد تقلب كل الموازين رأسًا على عقب.

أجابه الدكتور أحمد منفعلًا:

ـ بل إننا أمام كسر لكل قواعد الخلية الحية المعروفة.. سائل الحفظ، الذي توجد به خلايا المخ هذه، يكفي لمنعها من التلف فحسب، ولكنه لا يحوي أي شيء، يمكن أن يدفعها للاستمرار في الحياة.. خلايا المخ، مثلها مثل أية خلايا أخرى، تحتاج إلى الأكسجين والغذاء لِتَحيَا، وهذا السائل لا يمنحها أيًّا منهما.

عاد الدكتور محمد إلى صمته بضع لحظات أخرى، قبل أن يسأل في اهتمام:

ـ وكيف يمكننا التأكُّد من هذا؟!

أجابه الدكتور أحمد، في شيء من العصبية:

ـ يمكنني أن أؤكِّد لك، من دون أدنى شك، أن هذه الخلايا ليست حية.

هزَّ الدكتور محمد رأسه، قائلًا في حزم:

ـ وأنا أستطيع أن أجزم، بأنها تبث نبضات كهرومغناطيسية منتظمة.

بدت حيرة شديدة على وجه الدكتور أحمد، وهو يقول:

ـ ولكن كيف؟!

أجابه الدكتور محمد:

ـ هذا ما يجب علينا أن نبحث عن جوابه.

ران عليهما صمت عميق، داخل ذلك المعمل الصغير، وهما يتطلَّعان بعضهما إلى بعض، قبل أن يغمغم الدكتور أحمد:

ـ فليكن.. سنتجاهل كل القواعد الطبية المعروفة، وسنعيد فحص ودراسة كل شيء من البداية، انطلاقًا من حقيقة واضحة أمامنا، على الرغم من غرابتها.. سأعيد فحص هذه الخلايا مرة أخرى.

قالها، وهو يجذب إليه ذلك الميكروسكوب المتطوِّر في المعمل، ولكن الدكتور محمد قال في حزم:

ـ لست أظن هذا يفيدنا كثيرًا.. سنحتاج إلى شيء أكثر قوة.

رفع الدكتور أحمد عينيه إليه، متسائلًا:

ـ الميكروسكوب الإلكتروني؟!

أومأ الدكتور محمد برأسه إيجابًا، وقال:

ـ نستطيع استخدام ذلك الموجود بالجامعة.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، قائلًا:

ـ لقد استخدمته لفحص خلايا المخ عشرات المرات.

مال الدكتور محمد نحوه، وهو يقول في حزم:

ـ لم تكن من بينها بؤرة صرعية واحدة.

اعتدل الدكتور أحمد، يتطلّع إليه بضع لحظات، قبل أن يقول في حزم مماثل:

ـ أنت على حق.

ثم التفت إلى خلايا المخ، المحفوظة في ذلك الوعاء، مستطرِدًا:

ـ استقرار حالة شيماء، يؤكّد أن هذه الخلايا تحوي حتمًا تلك البؤرة الصرعية، ويعني أننا، ولأوّل مرة، سنستطيع كشف أدق أسرارها.

التقط الدكتور محمد نفَسًا عميقًا، وهو يقول:

ـ أو ربما أخطر أسرارها.

ومرة أخرى لفّهما صمت عميق..

للغاية.

* * *

هدوء عجيب، ساد قسم الأطفال، في ذلك المستشفى الكبير.

هدوء غير طبيعي على الإطلاق.

كل الأطفال في القسم، استغرقوا في سبات عميق، على عكس المعتاد.

ممرضات القسم، رُحنَ يقاومن النوم في صعوبة، وعقارب الساعة

تقترب من الثانية والنصف صباحًا، ثم لم تلبث بعضهن أن استسلمن للنوم، مع ذلك الهدوء غير الطبيعي في المكان، وسرعان ما لحقت بهن الباقيات.

أما الطبيب المناوب، فقد غفا على سطح مكتبه الصغير، ودفع قلمه بيده، من دون أن يشعر، فتدحرج القلم على سطح المكتب، حتى بلغ الحافة، فسقط من فوقها، و...

وفي خفة مدهشة، التقطته يد نحيلة، قبل أن يسقط أرضًا.

كانت يدًا شديدة النحول، حتى لَتبدو أشبه بيد هيكل عظمي، لولا غلاف رقيق من جلد شاحب يغطيها.

ولولا عدد الأصابع فيها..

فتلك اليد، لم تكن تحوي خمسة أصابع، كأي يد بشرية عادية.

لقد كانت تحوي ستة أصابع طويلة نحيلة.

وبتلك الخفة المدهشة، التقطت تلك الأصابع الستُّ القلم، ثم أعادته إلى سطح مكتب الطبيب المناوب.

وعبر ممر قسم الأطفال الهادئ، ومن دون أن يصدر أدنى صوت، سار صاحب الأصابع الستة، نحو عنبر الأطفال حديثي الولادة.

وعندما بلغ العنبر، توقَّف لحظات أمام بابه، الذي تموَّج على نحو عجيب، في حين تحوَّل جسده الطويل النحيل إلى ما يشبه الظل، وعبر الباب من دون أن يفتحه، ثم عاد يتجسَّد داخل العنبر.

وفي هدوء، وبعينيه شديدتي السواد، راح يتطلَّع إلى الأطفال

السبعة في العنبر، قبل أن يُخرج من ثيابه السوداء كرةً صغيرة شفافة، في حجم كرات تنس الطاولة، وضعها على راحته، ذات الأصابع الست، ثم أنزل يده، فظلَّت الكرة معلَّقة في الهواء لحظات، كما لو أنها لا تخضع لقوانين الجاذبية المعروفة، ثم انسابت في الهواء بخفة، لتدور حول رأس كل طفل من الأطفال السبعة، قبل أن تستقر فوق رأس أحدهم، وتتألَّق لثانية واحدة، ببريق أحمر.

وهنا، وبنفس الهدوء، وكأنه يسير على وسادة هوائية، اتجه ذلك النحيل الطويل نحو ذلك الطفل، الذي وقع اختيار تلك الكرة عليه، وأخرج من ثيابه شيئًا رفيعًا، ألصقه برأس الطفل، ثم مس دائرة بيضاء فيه، فتألَّقت الدائرة لحظة، ارتجف خلالها ذلك الشيء الرفيع ارتجافًا بسيطًا، سحب بعدها النحيل ذلك الشيء الرفيع، والتقط الكرة، وأعاد كليهما إلى ثيابه، ثم وقف يتطلَّع إلى نقطة صغيرة دقيقة على رأس ذلك الطفل، بدت واضحة للأعين لحظات، ثم سرعان ما تلاشت، حتى لم تعد تترك أدنى أثر.

وبنفس الأسلوب، غادر الطويل النحيل عنبر الأطفال حديثي الولادة، وعبر الممر الطويل كله، حتى اختفى مع نهايته.

ومع اختفائه، بدأ أحد الأطفال يبكي، واعتدل الطبيب المناوب من غفوته، والتقط قلمه، واستيقظت ممرضات القسم، الذي عادت إليه الحياة..

كاملة.

* * *

ـ كل شيء يبدو عاديًّا حتى الآن..

غمغم الدكتور أحمد بالعبارة، وهو يفحص تلك الخلايا المخية، عبر الميكروسكوب الإلكتروني، في جامعة القاهرة، فقال الدكتور محمد، وهو يعمل على آلة التصوير الرقمية، الملحقة حديثًا بالميكروسكوب:

ـ أنا سأقوم بتسجيل كل شيء.

هزَّ الدكتور أحمد رأسه، قائلًا:

ـ كنت أتمنى وجود شيء أكثر دقة.

قال الدكتور محمد، وهو يتابع شاشة الميكروسكوب الإلكتروني:

ـ الدكتور أحمد زويل لديه أبحاث في هذا الشأن، ويمكننا الاستعانة به، لو أن هذا لم يُسفر عما نبحث عنه.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، مغمغمًا:

ـ إننا هنا منذ بداية النهار، ولم...

توقف فجأة، هاتفًا:

ـ مهلًا.

التفت إليه الدكتور محمد في لهفة، وأدهشه ذلك الانفعال الشديد على وجهه، وهو يقول، مشيرًا إلى الشاشة:

ـ هل ترى هذا؟!

رفع الدكتور محمد منظاره، وهو يميل أكثر نحو الشاشة، متسائلًا:

ـ ما هذا بالضبط؟!

أجابه الدكتور أحمد، وهو يلصق سبَّابته بالشاشة، على عكس القواعد المتبعة:

ـ هذا الشيء.. ألا تراه؟!

مال الدكتور محمد نحو الشاشة أكثر، وهو يغمغم في حذر:

ـ يبدو لي أشبه بفقاعة هوائية دقيقة، أصغر من ميكروسكوبية.

مال الدكتور أحمد، ليفسح له مجال الرؤية، وهو يقول في انفعال:

ـ لم أر شيئًا مثلها، في أية خلايا مخية، من أي نوع.

غمغم الدكتور محمد، في حذر أكثر:

ـ هذه الخلايا كانت محفوظة فترة طويلة، في سائل الحفظ، ومن الجائز أن تتكوَّن فيها فقاعات هوائية، أو...

قاطعه الدكتور أحمد، وهو يقول بنفس الانفعال:

ـ اصمت، ولا ترفع عينيك عنها لحظة.

أطبق الدكتور محمد شفتيه، وبدا وكأنه حتى قد حبس أنفاسه، وهو يحدِّق في تلك الفقاعة الأصغر من ميكروسكوبية، والتي بدت شديدة الصغر، على الرغم من التكبير الفائق للميكروسكوب الإلكتروني، و...

ـ هل يمكنني أن أتحدَّث معكما لحظات أيها السيدان؟!

انتزعهما الصوت الرفيع من تركيزهما بعنف، فانتفض جسداهما معًا، وهما يلتفتان إلى صاحبه، الذي بدا وكأنه قد نبت من فراغ، داخل حجرة الميكروسكوب الإلكتروني، وبينما حدَّق فيه الدكتور أحمد بكل توتره، هتف الدكتور محمد في عصبية:

ـ من أنت؟! وكيف دخلت إلى هنا؟!

كان ذلك القادم نحيلًا، طويل القامة، له ملامح بشرية عادية، وإن بدت جامدة بعض الشيء، كما بدا مظهره مثيرًا للدهشة، بمعطف المطر الطويل الذي يرتديه، والذي لا يتناسب مع طبيعة الطقس المعتدل، في تلك الفترة من العام، ولقد بدا أكثر جمودًا، وهو يجيب:

ـ في مجتمع كهذا، يفتح المال كل الأبواب.

قال الدكتور أحمد، في صرامة متوترة:

ـ هذا يجيب نصف السؤال فحسب.

ظلت ملامح الرجل جامدة، وهو يقول:

ـ بالطبع.. ولكنكما لاحظتما بالتأكيد، عبر لهجتي، أنني لست مصريًّا مثلكما.

قال الدكتور محمد في صرامة:

ـ هذا يبدو واضحًا.

تابع الرجل، وكأنه حتى لم يسمعه:

ـ الواقع أنني محامٍ أردني، أُمثل عددًا من شركات إنتاج الدواء الأمريكية الكبرى، ويمكنكما القول بأنني هنا لمهمة خاصة.

سأله الدكتور أحمد في قلق:

ـ وما شأننا بشركات إنتاج الدواء الأمريكية.

مرة أخرى واصل الرجل بنفس الجمود، وكأنه لا يستمع إلى أحد:

ـ وتلك الشركات تستثمر مليارات الدولارات كل عام، في إنتاج آلاف الأصناف من الدواء، الذي يحتاج إليه المرضى، في كل أنحاء العالم.

تبادل الدكتور أحمد والدكتور محمد نظرة صامتة، وكأنهما أدركا معًا عدم جدوى محاولة تبادل الحديث مع الرجل، الذي استطرد:

ـ ومنها بالطبع أدوية الصرع.

صدمتهما العبارة الأخيرة، فتبادلا نظرة أخرى شديدة التوتر، قبل أن يقول الدكتور أحمد في حدة:

ـ يبدو أنك قد أخطأت العنوان يا رجل.

رماه الرجل بنظرة باردة قاسية، قبل أن يقول:

ـ ولقد نما إلى علم تلك الشركات، أنكما تسعيان لإيجاد حلٍّ جراحي، يمكنه شفاء مرضى الصرع.

كانت هذه صدمة جديدة، للرجلين اللذينِ حرصًا على إبقاء تجاربهما طي الكتمان، فاندفع الدكتور أحمد، يقول بكل عصبية:

ـ من أين أتيت بهذه الفكرة؟!

مرة أخرى تجاهل الرجل السؤال تمامًا، وهو يقول:

ـ والجراحة التي أجراها الدكتور أحمد عامر، للمريضة شيماء طلعت، كانت ناجحة للغاية، وهذا يعني أنها مسألة وقت، قبل أن يتم نشر الفكرة، واستخدام الجراحة بدلًا من العقاقير؛ لعلاج حالات الصرع.

عقدت مفاجأة المعلومات المتتالية لساني الرجلين، فاكتفيا بالتحديق في ذلك النحيل، الذي تابع في جمود مدهش، وكأنه شخص آلي:

ـ ويعني في الوقت ذاته، أن تخسر الشركات التي أمثلها، والتي تنتج العقاقير الخاصة بعلاج الصرع، استثمارات بمليارات الدولارات.

قال الدكتور أحمد في حزم:

ـ ويعني أيضًا شفاء ملايين المرضى، من ذلك المرض اللعين.

رمقه الرجل بنظرة مخيفة، وهو يقول:

ـ أتحدَّث عن مليارات الدولارات.

أجابه الدكتور أحمد، في حزم أكبر:

ـ وأنا أتحدَّث عن ملايين المرضى.

لوَّح الرجل بيده، وهو يقول:

ـ قبل أن تتحدَّث في أمور فلسفية، لا طائل منها، دعني أختصر الوقت، وأبلغكما بأن تلك الشركات، تعرض عليكما مائة مليون دولار أمريكي، مقابل التوقُّف عن تلك التجارب، التي تهدِّد استثماراتها، و...

قاطعه الدكتور محمد في صرامة:

ـ العرض مرفوض.

رمقهما الرجل بنظراته القاسية لحظات، قبل أن يسأل بنفس الجمود:

ـ المبلغ أم المبدأ؟!

أجابه الدكتور أحمد بكل صرامة:

ـ المبدأ.. كلانا ليس مستعدًّا للتضحية بصالح ملايين المرضى، ولو مقابل مال الدنيا كله.. والآن أرجو أن تنصرف في هدوء، قبل أن نجري اتصالنا بالأمن؛ ليخرجك من هنا.

رمقهما الرجل مرة أخرى، بتلك النظرات القاسية، قبل أن يقول في جمود:

ـ وماذا عن بناتك يا دكتور أحمد، وأبنائك يا دكتور محمد؟!

تفجَّر الغضب، في ملامح الدكتور أحمد، في حين احتقن وجه الدكتور محمد، وهو يلتقط هاتفه، قائلًا في حدة:

ـ سأطلب استدعاء الأمن.

خلع الرجل قفازه في هدوء، وهو يقول:

ـ فليكن.. كانت محاولة سلمية أخيرة.

تراجع كلاهما في دهشة تمتزج بالذعر، أمام يده شديدة النحول، ذات الأصابع الست، التي ارتفعت في وجهيهما، وهتف الدكتور أحمد:

ـ رباه! ما هذ...

قبل أن يتم هتافه، سطع ضوء مبهر من تلك اليد النحيلة في وجهيهما، كما لو كان ضوء مصباح تصوير مباغت، و...

وفجاة، استعاد كلاهما شعوره..

واستعاد ذهوله.

لقد اختفى ذلك الرجل تمامًا من أمامهما، وعادت حجرة الميكروسكوب الإلكتروني خالية، إلا منهما!!

وبكل ذهوله، هتف الدكتور أحمد:

ـ ماذا كان هذا؟! وأين ذهب؟!

اندفع الدكتور محمد يفتح باب الحجرة، ويهتف في العامل، الذي يقف بالقرب منها:

ـ أين ذهب ذلك الرجل، الذي خرج من هنا؟!

بدت دهشة صادقة، على وجه العامل، وهو يقول مرتبكًا:

ـ أي رجل؟! الحجرة لم يدخلها سواك وضيفك يا دكتور محمد.. وأنا هنا منذ دخولكما، ولم أشهد من يدخلها بعدكما.

كان الدكتور محمد غاضبًا، إلا أن الرجل بدا صادقًا للغاية، فتراجع إلى داخل الحجرة، وأغلق بابها، قائلًا في عصبية:

ـ لا عليك.

وبينما يهمُّ بنقل ما سمعه من العامل إلى الدكتور أحمد، سمع هذا الأخير يهتف في دهشة تفوق دهشته:

ـ رباه! ولكن كيف؟!

سأله بكل توتره:

ـ ماذا هناك أيضًا؟!

بدا الدكتور أحمد شديد الانفعال، وهو يقول:

ـ خلايا المخ، التي كنا نفحصها.

ارتجف قلب الدكتور محمد، وهو يسأله:

ـ هل تَلِفت؟!

كان صوت الدكتور أحمد أقرب إلى الانهيار، وهو يقول:

ـ بل اختفت.. اختفت تمامًا.

وكانت صدمة بالغة..

وشديدة القسوة..

إلى أقصى حد.

٤

ـ تقاريرك تأخرت.. كالمعتاد.

أطلق إبراهيم زفرة حارة، من أعمق أعماق صدره، وبذل جهدًا خرافيًّا في إخفائها عن عيني وأذني رئيسه، قبل أن يغمغم:

ـ أنا على وشك الانتهاء منها.

ندَّت من رئيسه ضحكة داخلية ساخرة، وقال وهو يبتعد:

ـ هذا ما أسمعه منك دومًا.

مع ابتعاده، أطلق إبراهيم زفرة ثانية، على نحو واضح هذه المرة، وهزَّ رأسه مستنكرًا، ومغمغمًا:

ـ وهذا ما أسمعه منك دومًا أيضًا.

كان يشعر بحنق شديد، مع أسلوب رئيسه، الذي لا يكف عن تقريعه ولومه دومًا، على الرغم من أنه يعتبر نفسه موظفًا مثاليًّا، في

هذه الشركة الكبيرة، لم يتخلَّف يومًا عن موعد الحضور، ولم ينصرف قطُّ قبل موعد الانصراف الرسمي..

وهو ينجز عمله دائمًا.

ربما في اللحظات الأخيرة، ولكنه أفضل بلا شك ممن يتقاضون نفس راتبه، ويتمتعون بوظيفة تماثله، ولكن أعمالهم تتأخر دومًا.

زفر مرة ثالثة، وهو يواصل عمله، على الرغم من تلك الفكرة العجيبة، التي تسيطر على عقله، منذ استيقظ في الصباح.

كانت فكرة عجيبة بحق، لم يدر لها سببًا.

فكرة أن يسافر إلى الإسكندرية، ويقف على كورنيشها، في مواجهة البحر.

مجرَّد فكرة، قد تخطر ببال شخص مجهَد، يتوق إلى الراحة..

وإلى البحر.

ولكن حتى هذا الوقت من العام، لم يكن يناسب فكرة السفر إلى مدينة ساحلية مثل الإسكندرية..

وحتمًا لا يناسب الوقوف في مواجهة البحر.

ولكن العجيب أن الفكرة راحت تلح على عقله طوال الوقت..

وتلح..

وتلح.

وفي كل مرة، كان إلحاحها يتزايد، وعمقها في ذهنه يتعاظم، حتى إنه لم يعد يستطيع مواصلة عمله.

وعندما ارتفع صوت رئيسه هذه المرة، وهو يهتف به:

ـ هل انتهيت؟!

لم يَبد عليه حتى أنه قد سمعه.

لقد بدَا شاردًا، يتطلَّع إلى ما أمامه، وكأنه لا يرى سوى تلك الصورة العجيبة، النابعة من أعماق مخه..

صورة البحر..

بحر الإسكندرية.

ولقد شعر رئيسه بالغيظ، عندما تجاهل إبراهيم نداءه تمامًا، فهب من خلف مكتبه، واندفع نحوه، وأمسك كتفه، صائحًا في غضب:

ـ لماذا لا تجيب؟!

حتى هذه الحركة العنيفة، لم يَبد لها أدنى تأثير على إبراهيم، الذي ظل يحدِّق أمامه في شرود، وتلك الصورة الذهنية تتسع في ذهنه أكثر..

وأكثر..

وأكثر.

ثم فجأة، نهض من مقعده، على نحوٍ جعل رئيسه يتراجع في دهشة، وهو يسأله في قلق:

ـ ماذا أصابك؟!

تجاهل إبراهيم قوله تمامًا، وهو يغادر المكان كله، في خطوات ثابتة حاسمة، على الرغم من نظراته، التي بدت وكأنها قد تعلَّقت بشيء لا وجود له.

شيء خارج عالمنا..

تمامًا.

وبكل دهشته، هتف رئيسه:

ـ ماذا أصاب هذا المختل؟!

ثم استطرد في غضب، وهو يلقي نظرة على الأوراق، التي تركها إبراهيم خلفه:

ـ إنه حتى لم يُنه تقاريره!

لم يسمع إبراهيم عبارته الأخيرة، أو فلْنَقُل إنه لم يسمع، خلال الدقائق الخمسة الماضية شيئًا، سوى صوت الأمواج، وهي تتكسَّر على شاطئ الإسكندرية.

لم يعد يسمع أو يرى، سوى ما تفرضه تلك الصورة الذهنية، الكامنة في مكان ما من مخه..

حتى وهو يقود سيارته مبتعدًا، في طريقه إلى حيث يفرض عليه عقلُه..

إلى البحر..

بحر الإسكندرية.

* * *

هزَّ رئيس جامعة القاهرة رأسه في قوة، وهو يقول في حزم، في مواجهة الدكتور أحمد والدكتور محمد:

ـ ما تقولانه مستحيل تمامًا.. استمعت إلى شهادات الجميع بلا استثناء، وكلهم أكَّدوا أنهم لم يروا شخصًا بذلك الوصف المتميِّز قط، لا في قسم الميكروسكوب الإلكتروني، ولا في أي مكان آخر، في الجامعة كلها.

انعقد حاجبًا الدكتور أحمد في شدة، في حين بدا الدكتور محمد عصبيًّا، وهو يقول:

ـ ولكنه كان هناك بالفعل، داخل حجرة الميكروسكوب الإلكتروني، ولقد رآه وتحدث إليه كلانًا، ولست أظنك تتهمنا معًا بحالة من الهلوسة المشتركة؟!

مطَّ رئيس الجامعة شفتيه، وقال:

ـ معاذ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أفكِّر حتى في هذا، ولكن المشكلة أنكما وحدكما التقيتما به!! حتى الآخرون، الذين كانوا في المكان، أنكروا رؤيته يدخل أو يخرج، من حجرة الميكروسكوب الإلكتروني.. بل من القسم كله.

قال الدكتور محمد بنفس العصبية:

ـ إنه لم ينبت من فراغ.

مسَّ الدكتور محمد يده؛ ليمنعه من الاستطراد، وهو يسأل:

ـ ألا توجد في مثل هذه الأقسام كاميرات مراقبة أو ما شابه؟!

هزَّ رئيس الجامعة رأسه نفيًا، وهو يجيب في ضيق:

ـ ميزانية الجامعة ليست بهذا القدر يا دكتور أحمد.

أشار الدكتور أحمد بيده، قائلًا:

ـ ولكن توجد واحدة عند مكتبك.

بدا رئيس الجامعة أكثر ضيقًا، وهو يجيب، مُشيحًا بوجهه عنه:

ـ تعميم هذا يحتاج إلى ميزانية كبيرة.

قال الدكتور أحمد في إصرار:

ـ ولكنه سيعود على جامعة كبيرة كهذه بفوائد جمة.

انعقد حاجبًا رئيس الجامعة، وهو يقول:

ـ ولكننا لسنا هنا لمناقشة هذا بالتأكيد.

حاول الدكتور أحمد المواصلة، ولكن الدكتور محمد أمسك يده، وهو يقول في توتر:

ـ وماذا عن العينة، التي تمت سرقتها؟!

هزَّ رئيس الجامعة كتفيه، وقال في عدائية واضحة:

ـ لا أحد يعلم ما إذا كانت موجودة من الأساس.

احتقن وجه الدكتور محمد في شدة، وشعر بمهانة مستترة في الجواب، ولكن الدكتور أحمد جذبه نحو الباب، وهو يقول:

ـ فليكن يا سيِّدي.. شكرًا لتعاونك، وأرجو إبلاغنا لو جد جديد.

مطَّ رئيس الجامعة شفتيه في ضجر، وهو يغمغم:

ـ بالتأكيد.

وما إن غادرَا مكتبه، حتى هتف الدكتور محمد في غضب:

ـ إنه يلمِّح إلى أننا قد لفقنا الأمر كله.

قال الدكتور أحمد، محاولًا التخفيف عنه:

ـ فكِّر فيما كنا سنقوله نحن، لو قص أحدهم علينا ما قصصناه عليه!

نجحت العبارة في أن تنهي غضب الدكتور محمد، لتحلَّ محله حيرة متوترة، وهو يغمغم:

ـ أنا نفسي أتساءل عما إذا كان هذا قد حدث حقًّا؟!

غادرَا مبنى إدارة الجامعة، والدكتور أحمد يخرج غليونه، قائلًا:

ـ أعلم أننا قد اتفقنا على ألا أدخِّن غليوني في وجودك، ولكنني أشعر برغبة عارمة الآن في إشعاله.

غمغم الدكتور محمد:

ـ لن يكون هذا أسوأ مما حدث.

وافقه الدكتور أحمد بإيماءة من رأسه، وهو يشعل غليونه، ثم قال في اهتمام، وهو ينفث دخانه:

ـ كعالِمَين، علينا أن نتبع الأسلوب العلمي في التفكير، وبالذات عندما نواجه أمرًا يفوق إدراكنا.

عاد الفضول العلمي يزيح كل المشاعر الأخرى من ذهن الدكتور محمد، وهو يقول:

ـ أنت على حق تمامًا في هذا.

لوَّح الدكتور أحمد بغليونه، قائلًا:

ـ مكتبك؟!

هزَّ الدكتور محمد رأسه نفيًا، وقال في شيء من الحدة:

ـ كلَّا.. إنه أصغر من أن يحتمل سحب دخان غليونك.. نحتاج إلى مكان مفتوح، أو أكثر اتساعًا على الأقل.

لم تمض دقائق عشر، حتى جمعهما مطعم شهير، يسمح بالتدخين في قاعته الكبرى، وبدأ الدكتور أحمد الحديث، وهما يتناولان كوبين من عصير البرتقال الطازج:

ـ في البداية، ينبغي أن نُقر بأننا نخوض تجربة عجيبة، لم تكن قطُّ في حسباننا، عندما بدأنا عملنا المشترك.

غمغم الدكتور محمد، وهو يُبعد رأسه عن دخان الغليون:

ـ لا شك في هذا.. خلايا مخية محفوظة في وعاء حِفْظ، منذ ما يقرب من العام، تُصدر نبضات كهرومغناطيسية منتظمة، وفقاعة أصغر من ميكروسكوبية، تلفت انتباهنا، مع الفحص بالميكروسكوب الإلكتروني، ثم هذا الـ.. شيء!

نفث الدكتور أحمد دخان غليونه، وهو يقول:

ـ لاحظ أنه ظهر داخل حجرة الميكروسكوب الإلكتروني الصغيرة فجأة، ومن دون أن يعبر بابها.

بدا الدكتور محمد عصبيًّا، وهو يقول:

ـ أي قول هذا؟!

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، وهو يقول:

ـ لم يره أحد يدخل، أو حتى يسير خارج المكان، ونحن لم نشعر بالباب ينفتح، أليس كذلك؟!

مطَّ الدكتور محمد شفتيه، وهزَّ كتفيه مستسلمًا في ضيق، فتابع الدكتور أحمد في اهتمام:

ـ ويده ذات الأصابع الست.. هل لاحظتها؟!

غمغم الدكتور محمد في عصبية:

ـ بالتأكيد.

حمل صوت الدكتور أحمد شيئًا من الحماس، وهو يقول:

ـ كانت شديدة النحول، وكأنها يد هيكل عظمي، مَكْسوَّة بجلد شاحب، يميل إلى شيء من الزرقة، كما لو أنه لا يحصل على ما يكفيه من الأكسجين.

انتقل حماسه إلى الدكتور محمد، وهو يقول:

ـ هذا ما بدا لي بالفعل.. ثم هناك ذلك الوميض، الذي انطلق منها، وأعمانا لحظة، اختفى هو خلالها تمامًا.

أشار الدكتور أحمد بغليونه، هاتفًا:

ـ ولم يخرج من الباب أيضًا.

هتف الدكتور محمد:

ـ بالضبط.

ثم تراجع في مقعده، وانعقد حاجباه، وهو يضيف، وقد عاوده توتره:

ـ ولكنني لست أعتقد أن ذلك الوميض، الذي انطلق من يده النحيلة، ذات الأصابع الست، قد أعمانا لحظة.

صمت وهلة، ثم أضاف في عصبية:

ـ لقد أفقدنا الوعي بضع لحظات.

ارتفع حاجبًا الدكتور أحمد في دهشة، وهو ينفث دخان غليونه، ثم عادًا ينخفضان، ثم ينعقدان، وهو يقول في تفكير:

ـ هذا أقرب إلى المنطق؛ فلقد أخرَجَنا من وعينا لحظات، كانت كافيةً للاستيلاء على عيِّنة الفحص، وبقايا الخلايا، في وعاء الحفظ.

صمت كلاهما تمامًا، بعد عبارته الأخيرة، وراحا يتطلَّعان بعضهما إلى بعض، في مزيج من الحيرة والتوتر والتردُّد، قبل أن يتساءل الدكتور محمد في حذر:

ـ يبدو أن هذا يفوق ما نعرفه هنا.

ثم انخفض صوته، حتى بات تمييز كلماته عسيرًا، وهو يضيف:

ـ على الأرض.

شملهما الصمت بضع لحظات أخرى، استغلها الدكتور أحمد في إعادة ملء غليونه وإشعاله، قبل أن يقول:

ـ أتظننا قد مسَّنا ذلك الخيط الرفيع، بين العِلم والخيال العلمي؟!

صمت الدكتور محمد لحظات، بدا خلالها شديد التوتر والتردُّد، ثم أجاب في خُفوت حذِر:

ـ لو أنك تشير إلى الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، وسكان الكواكب الأخرى، الذين يعيشون بيننا، فأنا لم أؤمن بهذا قط.

سأله الدكتور أحمد، وهو ينفث دخان غليونه:

ـ بِمَ تؤمن إذن؟!

أجابه في حزم، لم يخل من توتر ملحوظ:

ـ بكل ما يمكن إثباته علميًّا.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، قائلًا:

ـ أمور عديدة كانت تحيط بنا منذ الأزل، وقبل وقت طويل من قدرتنا على كشفها، أو إثبات وجودها علميًّا.. الأكسجين نفسه، أحد أهم مكونات الهواء الذي نتنفسه، والذي يتنفسه كل كائن حي متحرك منذ الأزل، لم يكن هناك أي حديث علمي عنه، حتى أشار «جون مايو» إلى وجوده، في منتصف القرن السابع عشر، وبعده بقرن تقريبًا، وبالتحديد عام ١٧٧٤م، قام «بريستلي» بفصله، وبعدها أثبت «لافوازيه» أنه أحد أهم مكونات الهواء[١].. والموجات الكهرومغناطيسية نفسها، التي نستخدمها في أبحاثنا المشتركة، لم تكن...

قاطعه الدكتور محمد، بإشارة عصبية من يده:

ـ فكرتك وصلتني، ولكنها لا تنطبق على الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، ولا على الفضائيين؛ فعلى الرغم من الأبحاث العديدة في هذا الشأن، ليس هناك دليل علمي واحد، على صحة وجودهم.. فقط مشاهدات.. مجرد مشاهدات، لا يمكن الجزم بصحة تفسيراتها.

---

(١) حقيقة علمية وتاريخية.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، قائلًا:

ـ هناك مشاهدات موثَّقة، لعدد من كبار المتخصصين.. طيارين ذوي ثقة، ورُوَّاد فضاء، وحتى الرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر»، له مشاهدات في هذا الشأن.

مطّ الدكتور محمد شفتيه، قائلًا:

ـ يبدو أنك تُضيِّع كثيرًا من وقتك، في أمور لا طائل منها.

ابتسم الدكتور أحمد، ونفث دخان غليونه مرة أخرى، قبل أن يقول:

ـ هذا ليس اهتمامي الرئيسي بالتأكيد، ولكنه يثير في نفسي كثيرًا من الفضول العلمي.

مال الدكتور محمد نحوه بحركة حادة، وهو يقول، في شيء من الحدة:

ـ ابحث على شبكة الإنترنت إذن، عن فيلم تسجيلي، يحمل عنوان «المؤامرة النازية للأجسام الطائرة مجهولة الهوية»[1]، وسيُدهشك أن أول جسم يحمل شكل الأطباق الطائرة، المعروف الآن، صنعه العلماء الألمان، خلال الحرب العالمية الثانية، وكان مشروعًا سريًّا نازيًّا، عبارة عن طائرة ذات جسم مستدير، تعلوه قبة عالية، وكان يرتفع عن الأرض، عن طريق وسادات هوائية.

---

(١) الفيلم موجود بالفعل «NAZI UFO Conspiracy».

قالها، وراقت له نظرة الدهشة، التي أطلَّت من عينَيِ الدكتور أحمد، فتراجع في مقعده، وتابع فيما يشبه الاستمتاع:

ـ المشروع لم يكتمل بالطبع؛ بسبب هزيمة النازية، في نهاية الحرب العالمية الثانية، وكل العلماء الذين شاركوا فيه، تم نقلهم بعد الحرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث اختفوا بعدها تمامًا، من كل السجلات الرسمية، وبعدها بأشهر قليلة، شاهد رجل الأعمال الأمريكي «كينيث أرنولد»، أول سِرب للأجسام الطائرة مجهولة الهوية، وهو يقود طائرته الخاصة، وكان أول من أطلق عليها اسم «الأطباق الطائرة»، وكان وصفُه لها يشبه تمامًا ذلك الوصف، الذي اقترن بالمشروع السري النازي، لتتوالى بعدها مشاهدات ما يسمى بالأطباق الطائرة، في عدد من الولايات الأمريكية[1].

صمت تمامًا بعد عبارته الأخرى، وعلت شفتيه ابتسامة مزهوة، قبل أن يضيف:

ـ هل تحب أن أكمل، أم إن هذا يكفي؟!

أفرغ الدكتور أحمد التبغ المحترق من غليونه، وقال في هدوء:

ـ بل أحب أن تخبرني بالمغزى من روايتك هذه.

أجابه الدكتور محمد في حزم:

(١) حقيقة علمية وتاريخية.

ـ إن خرافة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، والمخلوقات القادمة من الفضاء الخارجي، ما هي إلا لعبة متقنة؛ لإبعاد الأذهان عن مشروع حربي أمريكي سري.

حشَا الدكتور أحمد غليونه بالتبغ مرة أخرى، وهو يسأل، بنفس ذلك الهدوء العجيب:

ـ وهل أجرى الأمريكيون أبحاثًا؛ لإنتاج مخلوقات ذات ست أصابع، يمكنها أن تنتقل عبر الأثير، من دون أن تعبر الأبواب؟!

انعقد حاجبًا الدكتور محمد في ضيق، من دون أن يجيب، فأشار إليه الدكتور أحمد بغليونه، وهو يقول في حزم:

ـ لو أردت رأيي، فالأفضل أن ننحي التفسير جانبًا الآن، ونبحث أولًا عن وسيلة لاستكمال أبحاثنا، بعد أن فقدنا العيِّنة الوحيدة، التي كنا نعتمد عليها.

مطَّ الدكتور محمد شفتيه، وهزَّ كتفيه، قائلًا في بطء:

ـ إننا لم نفقدها تمامًا.

انهار هدوء الدكتور أحمد، وهو يسأله في انفعال:

ـ كيف؟!

اعتدل الدكتور محمد وشد قامته في حزم، وهو يجيب في اقتضاب:

ـ الصور الرقمية.

وتألَّقت عينا الدكتور أحمد..

بمنتهى الأمل.

* * *

بحركة حادة، ضغط إبراهيم فرامل سيارته، وهو يقف بها على جانب الطريق، المواجِه تمامًا لبقعة بعينها، من كورنيش الإسكندرية، غير مُبالٍ بأبواق السيارات الغاضبة، المستنكِرة لتوقُّفه المفاجِئ..

ومن دون حتى أن يُغلق سيارته، أو يبالي بالسيارات المسرعة، على طريق الكورنيش، عَبَر الطريق إلى الجانب الآخر، وسط عاصفة أخرى من أبواق السيارات الغاضبة.

وأمام سور الكورنيش تمامًا، توقف وتطلَّع إلى الأفق، بنفس تلك النظرة الشاردة، التي غادر بها مكتبه في القاهرة.

لم يكن ينظر، أو حتى يرى شيئًا بعينه.

فقط وقف ثابتًا، كجندي في طابور عسكري، وتطلَّع إلى نقطة واحدة..

وعلى مسافة كيلومتر واحد منه، كان هناك شخص آخر، ألح عليه عقله، أن يترك متجره في الزقازيق، ويحضر ليقف بنظرة شاردة، ووقفة عسكرية ثابتة، أمام كورنيش الإسكندرية، متطلعًا إلى نقطة غير معلومة..

وعلى الجانب الآخر منه، ولمسافة كيلومتر واحد بالضبط، كان هناك ثالث..

ورابع..

وخامس..

وسادس.

كان هناك أكثر من أربعين شخصًا، تخلَّوْا في إصرار عن كل ما بين أيديهم، وجاءوا من كل مكان في مصر، ليقفوا الموقف نفسه.

وكلٌّ منهم كان يعرف أين ينبغي أن يقف بالتحديد..

كلٌّ منهم ألح عليه عقله، من دون سبب واضح..

وكلٌّ منهم استجاب لذلك الإلحاح.

ولكن أحدًا منهم لم يعلم لماذا فعل هذا؟!

ولا لماذا جاء؟!

فقط ألحَّت عليهم عقولهم، فأطاعوها..

أو ألحَّ عليهم شيء ما داخل عقولهم..

شيء ليس منشأه من عالمنا..

على الإطلاق.

٥

ـ ما هذا بالضبط؟!

غمغم العقيد خيري ناصح، مدير مباحث الإسكندرية بالسؤال، في دهشة متوترة، وهو يطالع ذلك التقرير العجيب، الذي يلخص عددًا من الحالات المتشابهة غير الطبيعية، التي وردت الأنباء عنها، من طول المدينة وعرضها.

وفي استنكار عصبي، رفع عينيه إلى الرائد فوزي، مستطردًا:

ـ أهذا تقرير بحث جنائي، أم ملخص فيلم خيال علمي شاهدته مؤخرًا؟!

تنحنح الرائد فوزي، وهو يتخذ وقفة عسكرية ثابتة، مجيبًا:

ـ التقارير وردت على نحو متشابه، من كل أقسام المدينة يا سيادة العقيد، ولأنها تحمل نمطًا واحدًا، مهما بلغت غرابته، فقد رأيت أنه ليس عملًا جنائيًا محدودًا، يمكن أن تختص به المباحث الجنائية الفرعية، فهو يبدو أشبه بـ... بـ...

لم يستطع إتمام عبارته، فقال العقيد خيري في صرامة:

ـ بالخيال العلمي؟!

هزَّ الرائد فوزي رأسه في حزم، مجيبًا:

ـ بل بعمل سياسي منظَّم يا سيِّدي.

بدا وكأن الجواب قد لدغ العقيد خيري كثعبان أرقط، فقد هبَّ من مقعده بحركة عصبية، وهو يكرِّر في صوت مضطرب:

ـ عمل سياسي؟!

أومأ الرائد فوزي برأسه إيجابًا، وهو يقول:

ـ لا يمكن أن يحدث هذا، من دون أن يكون هناك رأس مدبِّر، وتنظيم على مستوى رفيع، يؤمن أفرادُه بمبدأ الطاعة العمياء، ولديهم استعداد تام للتضحية بأنفسهم، لو لزم الأمر، في سبيل طاعة ما يُصدره إليهم الرأس المدبِّر للتنظيم، ومن دون حتى معرفة الأسباب.

تراجع العقيد خيري في بطء؛ ليُعاود الجلوس على مقعده، وهو يغمغم بنفس الصوت المضطرب:

ـ تنظيم ديني؟!

أجاب الرائد فوزي في سرعة:

ـ أو تنظيم سياسي، يعلن عن وجوده، بهذا الأسلوب، الذي لم نعرف مثله قط.

وحمل صوته كثيرًا من الاهتمام، وهو يميل قليلًا إلى الأمام، متابعًا:

- احسبها معي يا سيادة العقيد.. أربعون شخصًا، من كل أنحاء الجمهورية، لا تربط بعضهم ببعض أية روابط واضحة أو معروفة، يأتون من مدنهم إلى الإسكندرية، فقط ليقف كلٌّ منهم على بُعد كيلومتر من الآخر، على امتداد شاطئ المدينة، ويتطلّعون إلى البحر، من دون أدنى استجابة للمؤثرات الخارجية.. ثم، وفي لحظة واحدة، وعلى الرغم من عدم عثورنا على أية وسائل اتصال، تربط بعضهم ببعض، يسقطون فاقدي الوعي، ويصعب إنعاشهم، بأية وسيلة معروفة.

ثم انحنى يشير إلى جزء من التقرير الشامل، وهو يتابع بنفس الاهتمام:

- مستشفيات الإسكندرية حارت في أمرهم، ومحاولات إنعاشهم ما زالت مستمرة، ولولا بطاقات الهوية الخاصة بهم، لما أمكننا تعرُّف ما يتعلق بهم.

بدَا العقيد خيري حائرًا، وهو يعاود قراءة التقرير، قبل أن يتراجع في مقعده، وهو يقول في توتر:

- لا يمكننا أن نرسل تقريرًا منقوصًا كهذا إلى الوزارة في القاهرة.. إننا نحتاج إلى مزيد من المعلومات.

انعقد حاجبًا الرائد فوزي قليلًا، وإن ظل يستخدم نفس اللهجة الرسمية، وهو يقول:

ـ معذرةً يا سيادة العقيد، ولكنني أظن أنه من الأفضل أن يعرفوا.. على الأقل حتى...

قاطعه رنين هاتفه الخاص فجأة، بنغمة خاصة مميَّزة، فارتبك وهو يَبتُر عبارته، وتطلع إلى رئيسه في قلق، فأشار إليه هذا الأخير في عصبية:

ـ أجِبْ.. ربما تكون هناك تطوُّرات جديدة.

التقط الرائد فوزي هاتفه في سرعة، وسأل في لهفة، وهو يضعه على أذنه:

ـ هل من جديد؟!

بدت عليه دهشة منزعجة، جعلت رئيسه يسأله في لهفة متوترة:

ـ ماذا هناك؟!

أبعَد فوزي الهاتف عن أذنه، وهو يجيب في ارتباك:

ـ لقد استيقظوا جميعًا يا سيادة العقيد.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في اضطراب:

ـ وفي لحظة واحدة.

وانعقد حاجبَا العقيد خيري في شدة، وهو يتراجع حتى يكاد يغوص في مقعده..

فتلك التطوُّرات العجيبة كانت غامضة ومخيفة..

بحق.

* * *

أطلق الدكتور محمد تنهيدة كبيرة، وهو يمسك أسطوانة مدمجة، على نحوٍ شديد الحرص والاهتمام، مغمغمًا:

ـ حمدًا لله.. إنها سليمة.

تحسَّس الدكتور أحمد الأسطوانة في حذر ولهفة، كما لو كانت مصنوعة من زجاج هَشٍّ، يسهل كسرُه، وغمغم بدوره:

ـ مِن حسن حظنا، أن ذلك الشيء لم ينتبه إليها.

قال الدكتور محمد، وهما يسرعان الخطى؛ للخروج من المكان:

ـ من حسن حظ العلم.

لم يتبادلا حرفًا واحدًا، وهما يستقلان سيارة الدكتور محمد، وينطلقان بها نحو بلدة هذا الأخير، حيث معملُه الخاص.

الكلمة الأولى، نطقها الدكتور أحمد، فور أن أغلق الدكتور محمد باب المعمل، الذي تم عزل جدرانه كلها، بألواح الرصاص:

ـ دعنا نشاهد ما سجلناه.

ومن دون كلمة واحدة، دفع الدكتور محمد الأسطوانة، في التجويف الخاص بها، في جهاز الكمبيوتر، وضغط زر التشغيل.

وفي صمت وانتباه كاملين، جلس الرجلان يتابعان المشاهد المتعاقبة على الشاشة.. وبلا مقدمات، هتف الدكتور أحمد:

ـ ها هي ذي.

بدت تلك الفقّاعة شديدة الضآلة واضحةً، تستقر بين خليتين من خلايا المخ، فغمغم الدكتور محمد، وهو يتطلّع إليها في اهتمام:

ـ مع هذا التكبير الفائق، تبدو أشبه بجزء من ذرة رمل واحدة.

زفر الدكتور أحمد وهو يقول:

ـ من المؤسف أن هذا أقصى تكبير، يمكن الوصول إليه.

تراجع الدكتور محمد، ومسح منظاره بمنديله، مغمغمًا:

ـ ليس بالضرورة.

تطلّع إليه الدكتور أحمد، في لهفة متسائلة، فعاد يرتدي منظاره، وهو يضيف:

ـ هذه إحدى أهم مميزات التصوير الرقمي؛ فمن الممكن تكبير الصورة الأساسية، إلى أربعة أضعاف حجمها الأصلي على الأقل.

غمغم الدكتور أحمد:

ـ ولكن هذا يفقد الصورة وضوحها.

هزَّ الدكتور محمد رأسه نفيًا، وهو يقول:

ـ لديَّ هناك برنامج خاص، أستعين به، في مثل هذه الأمور، وهو يعمل على تكبير الصورة، وإعادة تكوينها، بحيث لا تفقد من وضوحها إلا النذر اليسير.

هتف الدكتور أحمد:

ـ دعنا نفعلها إذن.

لم يكن الأمر سهلًا، وإنما استغرق ثلاث ساعات كاملة، قبل أن تبدو صورة واضحة على الشاشة، جعلت الدكتور أحمد يغمغم مبهورًا:

ـ إنها ليست فقاعة.

أضاف الدكتور محمد، لاهثًا في انفعال:

ـ وليست شيئًا طبيعيًّا.

ثم التفت إلى الدكتور أحمد، والتقتْ نظراتهما، وهو يضيف:

ـ إنه جسم صناعي.. أصغر جسم صناعي رأيته، أو حتى تخيَّلت وجوده، في حياتي كلها.

ومرة أخرى، عاد الصمت يلفهما معًا..

وعادت عيونهما تلتقي، حاملة كل الدهشة والانفعال..

والخوف..

وبلا حدود.

* * *

حملت نظرات إبراهيم حيرة بلا حدود، وهو يتطلَّع إلى الرائد فوزي، مغمغمًا في ارتباك:

ـ لست أدري حتى كيف جئت إلى هنا!! لقد كان الأمر كله فكرة.. مجرد فكرة!!!

سأله الرائد فوزي في اهتمام:

ـ وما نوع هذه الفكرة بالضبط؟!

بدا إبراهيم أكثر حيرة، وهو يهزُّ رأسه، قائلًا في شرود، وكأنه يحدِّث نفسه:

ـ فكرة ألحَّت على ذهني، منذ استيقظت.. فكرة عجيبة حمقاء، ولكنها استولت على تفكيري طوال الوقت.. كان هناك شيء ما، يلحُّ على ذهني أن أسافر إلى الإسكندرية، وأقف أمام البحر.. كنت أنهي تقاريري، حتى لا يواصل رئيسي تقريعي، و...

صمت فجأة، في حيرة شديدة، وامتقع وجهه في ارتباك، وهو يتلفَّت حوله، فسأله الرائد فوزي في إلحاح:

ـ وماذا؟!

أعاد بصره إليه، وهو يجيب بكل الحيرة والتوتر:

ـ وجدتُ نفسي هنا.

سأله الرائد فوزي بكل اهتمامه:

ـ في الإسكندرية؟!

هزَّ رأسه نفيًا، مجيبًا:

ـ بل هنا.. في هذا المستشفى.

بدَا وكأنه سينفجر بالبكاء، وهو يخفض عينيه، مضيفًا:

ـ لم أدرك حتى أنني في الإسكندرية، حتى أخبرني الطبيب بهذا.

تراجع الرائد فوزي بكل الدهشة، وهو يسأله:

ـ ألا تذكر قدومك إلى هنا، ووقوفك صامتًا على الكورنيش، متطلعًا إلى البحر.

هزَّ إبراهيم رأسه في يأس مرير، وبدأت الدموع تسيل من عينيه بالفعل، وهو يغمغم في ضراعة:

ـ كيف أتيت إلى هنَا؟! كيف فعلتها، من دون أن أذكر شيئًا؟! أخبرني بالله عليك.

تطلَّع إليه الرائد فوزي لحظات في صمت، ثم اعتدل مغمغمًا:

ـ سأعود إليك يا إبراهيم.

سأله إبراهيم في يأس خافت:

ـ مع الأجوبة؟!

التفت إليه الرائد فوزي بنظرة خاوية، وأومأ برأسه بلا معنى، وابتسم ابتسامة باهتة، قبل أن يمضي منصرفًا.

وبنفس اليأس البائس، أدار إبراهيم عينيه إلى النافذة، التي تطلُّ من بعيد على البحر..

بحر الإسكندرية.

وفي نفس اللحظة، كان الرائد فوزي يزفر في توتر، وهو يقول للعقيد خيري، عبر الهاتف المحمول:

ـ إجاباتهم كلها واحدة يا سيادة العقيد.. لا أحد منهم يذكر كيف ولماذا وصل إلى هنا.

حاول في صعوبة أن يزدرد لعابه، وهو يواصل بكل توتره:

ـ يبدو أنها ليست مجرد لعبة سياسية يا سيادة العقيد.. إننا أمام أمر أكبر من هذا.. أكبر بكثير.

والمخيف أنه كان على حق تمامًا، فيما ذهب إليه..

وإلى حد مرعب..

للغاية.

* * *

ـ ليس لديَّ أدنى شك في هذا.

نطق الدكتور محمد العبارة، في توتر ملحوظ، وهو يفحص في إمعان تلك الصورة، التي تم تكبيرها أربع مرات، للصور التي التقطها الميكروسكوب الإلكتروني، لعينة خلايا المخ، ثم استطرد، وهو يشير بسبَّابته إلى ذلك الجسم شديد الضآلة:

ـ إنه كامل الاستدارة، إلى حد غير طبيعي، وسطحه يلمع ببريق صناعي، ثم هناك تلك النقاط الدقيقة، الموزَّعة على سطحه في انتظام مدهش.

تساءل الدكتور أحمد في اهتمام:

ـ هل يبدو لك شفافًا إلى حد ما؟!

هزَّ الدكتور محمد رأسه نفيًا، مجيبًا:

ـ ما يبدو لك كشفافية، هو في الواقع تلك الخيوط بالغة الدقة، التي تربط بين النقاط بعضها ببعض، و...

بتر عبارته دفعةً واحدةً، ثم التفت إلى الدكتور أحمد، يسأله:

ـ أيمكن أن تكون هناك أنواعٌ من الفيروسات الدقيقة، لها هذا التكوين الـ..

قاطعه الدكتور أحمد في حزم:

ـ مطلقًا.. الفيروسات خارج المادة الحية، تبدو أشبه بقطع الكريستال الدقيقة، وليست بهذا التكوين المنتظم.

اعتدل الدكتور محمد، وهو يقول:

ـ في هذه الحالة، لا يوجد سوى تفسير واحد، كنت أدخره للنهاية.

سأله الدكتور أحمد في لهفة:

ـ أهو تفسير يمكن قبوله؟!

مطَّ الدكتور محمد شفتيه، وهزَّ كتفيه، مجيبًا:

ـ ليس لدينا سواه.

ثم عاد يشير إلى الشاشة، وهو يضيف:

ـ إنه جهاز استقبال أقل من ميكروسكوبي.

تراجع الدكتور أحمد بكل دهشته، وهو يقول:

ـ جهاز ماذا؟! لا توجد أية تكنولوجيا على الأرض، يمكنها صنع أي جهاز، مهما كانت ماهيته، بهذا الحجم المذهل.

التقط الدكتور محمد نفَسًا عميقًا، وهو يقول في حزم:

ـ حتى هذه اللحظة.

انعقد حاجبَا الدكتور أحمد في شدة، في حين تابع الدكتور محمد بنفس الحزم:

ـ التكنولوجيا تتطوَّر في سرعة، خلال نصف القرن الأخير، وما كان يبدو مذهلًا في الماضي، صار حقيقة عادية، يمتلكها كل إنسان، من دون حتى أن يشعر بقيمة ما بين أصابعه.

لوَّح بيده في حماس، وكأنه يلقي محاضرة مهمة، على عدد من تلامذته، وهو يكمل:

ـ في ستينيات القرن العشرين، كان هناك صراع صناعي، بين الصين والاتحاد السوفييتي، ولأن الصين تهتم بالمنمنمات منذ

الأزل، فقد أراد السوفييت إثبات تفوُّقهم أمامهم، وخصوصًا بعد أن رسم بعض الفنانين الصينيين لوحات كاملة رائعة، على حبات الأرز، لذا فقد أرسلوا إلى الصين هدية، هي عبارة عن شعرة من الصلب، طولها متر كامل.. كانوا يريدون بهذا إثبات تفوق آلاتهم، وقدرتها على الطرق والسحب؛ لتصنع من قطعة من الصلب، مترًا بدقة شعرة الرأس.. أتدري كيف استقبل الصينيون هذا؟![1].

لم يجد الدكتور أحمد صلة، بين ما هم بصدده، وبين تلك القصة العلمية والتاريخية، وعلى الرغم من هذا، فقد التزم الصبر، وسأل، في شيء من الضجر:

ـ كيف؟!

أجابه الدكتور محمد في حماس أكثر:

ـ لقد أعادوا إليهم شعرتهم، وقد ثقبوها من منتصفها، بطول متر كامل.

قالها، وأطلق ضحكة مرحة، وكأنما انفصل تمامًا عن واقعهما المخيف، ثم مال نحو الدكتور أحمد، مضيفًا:

ـ كانوا يثبتون للسوفييت، أن لديهم ما هو أدق وأصغر من شعرتهم، وأن آلاتهم تفوق الآلات السوفييتية، في القدرة على الطَّرْق والسحب.

(١) قصة حقيقية.

غمغم الدكتور أحمد، وهو يختلس النظر إلى الصورة، على شاشة الكمبيوتر:

ـ عظيم.

أمسك الدكتور محمد قطعة من قطع المعمل، وهو يقول، مستعيدًا حماسه:

ـ تكنولوجيا المنمنمات الآن، جعلت ما فعله السوفييت والصينيون، مجرد لعبة، لما فعله الآن، والهواتف المحمولة التي نحملها، صارت أكثر كفاءة، وأصغر حجمًا من...

قاطعه الدكتور أحمد بنفاد صبر:

ـ دكتور محمد، ماذا تريد أن تقول؟!

نبهت كلماته الدكتور محمد إلى خروجه عن الأمر، فذهب حماسه، وانعقد حاجباه، وهو يقول في صرامة:

ـ أريد أن أقول: «إن التكنولوجيا بتطوُّراتها، تستطيع تصغير الأشياء على نحو منتظم، ولن يمضي عشرون عامًا، حتى تستطيع التكنولوجيا الأرضية صُنْع شيء يقترب بدقته من هذا».

ردَّد الدكتور أحمد في توتر:

ـ عشرون عامًا!!

كانت تبدو على ملامحه علامات تفكير عميق، قبل أن يميل نحو الدكتور محمد، ويسأله في شيء من الصرامة:

ـ ألا زلت لا تؤمن بسكان الفضاء، والأجسام الطائرة مجهولة الهوية يا دكتور محمد؟

ازداد انعقاد حاجبي الدكتور محمد، وهو يتطلع إليه مباشرةً، من دون أن ينطق حرفًا..

أي حرف.

❊ ❊ ❊

شعر اللواء فاروق، مساعد وزير الداخلية، وكأن دخانًا كثيفًا يتصاعد إلى رأسه، وهو يقول:

ـ ما هذا الكلام الفارغ؟! أي تقرير هذا، الذي يصفه مخبولو مباحث الإسكندرية بأنه مهم وعاجل.

تنحنح العقيد مجدي، الواقف أمامه، قبل أن يقول:

ـ الواقع يا سيادة اللواء، أن التقرير تم إرساله إلى سيادة الوزير مباشرة، وسيادته شديد الاهتمام بالأمر، ولقد أحاله إلى سيادتكم؛ لشعوره بخطورة الحادثة.

اتسعت عينا اللواء فاروق قليلًا، وهو يغمغم في توتر:

ـ سيادة الوزير شخصيًّا.

مال العقيد مجدي نحوه، قائلًا:

ـ ربما هو تنظيم ما، يحاول لفت الانتباه إليه يا سيادة اللواء.

تراجع اللواء فاروق في مقعده، والقلق يملأ نفسه، وعاد يلقي نظرة على التقرير، قبل أن يقول:

ـ أربعون شخصًا، لا يربطهم أي شيء، يتركون مدنهم الأصلية، ويهرعون إلى الإسكندرية، فقط ليقفوا بطول الكورنيش، في مواجهة البحر!!

أكمل العقيد مجدي في اهتمام:

ـ المسافة بين كل واحد والآخر، كانت كيلومترًا واحدًا بالضبط، على الرغم من أن مباحث الإسكندرية لم تعثر معهم على أية وسائل للقياس.

غمغم اللواء فاروق في تفكير:

ـ لقد حدَّدوا أماكنهم مسبقًا.

تابع العقيد مجدي:

ـ وكلهم فقدوا وعيهم في توقيت واحد بالضبط.

غمغم اللواء فاروق في عصبية:

ـ رتَّبوا هذا مسبقًا.

رمقه العقيد مجدي بنظرة قصيرة، قبل أن يضيف:

ـ واستعادوا وعيهم كلهم في آنٍ واحد.

رفع اللواء فاروق عينيه إليه في حيرة متوترة، تدعو إلى

الإشفاق، وكأنما يبحث لديه عن جواب، ولكن العقيد مجدي أضاف في حذر:

ـ لقد حددنا بدقة، التوقيت الذي حدث فيه الإغماء الجماعي، وأيضًا توقيت الاستيقاظ الجماعي. والمدهش أن التوقيتين توافقا مع هذا التقرير الثاني، الذي ورد أيضًا من الإسكندرية.

قالها، وهو يمد يده بالتقرير الثاني، إلى اللواء فاروق، الذي التقطه في حذر متوتر، وألقى نظرة عليه، والعقيد مجدي يعقد كفيه خلف ظهره، قائلًا:

ـ ففي نفس التوقيتين بالتحديد، سجَّلت كل الدوريات الراكبة شوشرة عنيفة، على أجهزة اللاسلكي فيها.

شحب وجه اللواء فاروق، وهو يقرأ الكلمات نفسها في التقرير، قائلًا في عصبية:

ـ في التوقيتين بالضبط؟! وهل حدَّد القسم الفني مصدر ذلك التشويش؟

هزَّ العقيد مجدي رأسه نفيًا، قبل أن يقول:

ـ الشوشرة حدثت لكل أجهزة اللاسلكي، في كل الدوريات الراكبة، في طول الإسكندرية وعرضها، في لحظة واحدة، وحتى أقوى أجهزة الشوشرة المعروفة، لا يمكنها فِعْلُ هذا.

قال اللواء فاروق، في عصبية شديدة:

ـ ومن أين يمكن أن تأتي مثل هذه الشوشرة الفائقة؟!

وبدون كلمة واحدة، رفع العقيد مجدي سبابته، مشيرًا إلى أعلى..

وشحب وجه اللواء فاروق..

وبمنتهى الشدة.

* * *

ـ ماذا لو عرضنا الصور بالتتابع؟!

طرح الدكتور أحمد السؤال، على الدكتور محمد، وهما يتابعان معًا تلك الصور، التي التقطها الميكروسكوب الإلكتروني، لعيِّنة خلايا المخ، فالتفت إليه هذا الأخير، يسأله مستنكرًا:

ـ وبم يمكن أن يفيدنا هذا؟!

رفع الدكتور أحمد سبَّابته، قائلًا في اهتمام:

ـ سيجيب تساؤلًا مهمًّا، يدور في ذهني.. هل يستقر ذلك الجسم العجيب، تحت الميكروسكوبي في موضعه، أو أنه يتحرَّك؟

ارتفع حاجبًا الدكتور محمد لحظة، ثم عادًا ينخفضان، وهو يقول، وكأنه يعاتب نفسه:

ـ كيف لم أفكر في هذا؟!

ثم التفت إلى جهاز الكمبيوتر، وبدأت أصابعه تعمل عليه، وهو يقول في حماس:

ـ الصور المتحرِّكة تعرض بسرعة أربع وعشرين صورة، في الثانية الواحدة، ولسنا نملك هنا برنامجًا يمكنه عرضها بهذه السرعة، ولكن إذا ما عرضناها بسرعة صورة واحدة في الثانية، فستبدو أشبه بفيلم يعرض بالسرعة البطيئة.

غمغم الدكتور أحمد، وهو يتابع عمله في اهتمام:

ـ ربما يكون هذا أفضل.

انتهى الدكتور محمد من عمله، خلال دقيقة واحدة، ثم قال في حماس:

ـ ها هي ذي.

وضغط زر الإدخال، وبدأ عرض الصور الثابتة، وكأنها فيلم بطيء الإيقاع، لا تزيد مدته عن ثلاثين ثانية.

مع العرض، تراجع الرجلان بحركة واحدة تقريبًا، والتفتا بعضهما إلى بعض، بنظرة مِلْؤُها الدهشة والانفعال..

وربما الخوف أيضًا..

فما كشفه هذا العرضُ البطيء كان مدهشًا..

إلى حد الذهول.

٦

الحيرة التي شعر بها الرائد فوزي، فاقت كل حيرة مر بها في حياته، إزاء أعقد قضية واجهها، وأكثرها غموضًا وتعقيدًا.

فكل قضية مرت به، كان لها طرف خيط، على نحو أو آخر..

علاقة ما..

دليل صغير..

تحليل نفسي..

أي طرف خيط..

إلا هذه القضية..

كل شيء فيها مبهم..

غامض..

عجيب.

أربعون شخصًا، استجوبهم جميعهم بنفسه، ولم يتوصَّل إلى طرف خيط واحد، يمكن أن يكشف لمحة من غموضها، أو يلقي ولو ببصيص من الضوء على تعقيداتها..

فجميعهم لا يعلمون شيئًا..

ولا يذكرون شيئًا.

وخبرته تؤكد له، أنه من المستحيل أن يجيد كل هذا العدد من الأشخاص التمثيلَ، إلى الحد الذي يسمح لهم بافتعال الشرود والحيرة والخوف، على النحو الذي قرأه في ملامحهم.

ولا توجد صفة واحدة مشتركة بينهم..

موظف، ونجَّار، وربة منزل، وعامل في مزرعة.. وهكذا..

كلهم من بيئات مختلفة، ومستويات اجتماعية وتعليمية وثقافية متباينة.

ما الذي جمعهم في فكرة واحدة إذن؟!

كيف اجتمعوا في توقيت واحد؟!

وفي أداء واحد؟!

وتناغم واحد؟!

كيف؟!

كان الليل يرخي أستاره، عندما عاد إلى منزله، وألقى جسده

المجهد على فراشه، والتقط رواية لم يكملها محاوِلًا مطالعة قليل من صفحاتها، لعلها تزيح عن عقله المكدود بعض التوتر والقلق.

كانت رواية مترجمة، من روايات الخيال العلمي، التي أدمنها منذ حداثته، تحمل عنوان «راما»، وهو اسم ابتكره مؤلفها الأشهر، في هذا المجال «آرثر كلارك»، لكويكب صناعي، تم رصده يقترب من الشمس، ليكشف روَّاد الفضاء، الذين جازفوا بالاقتراب من ذلك النجم الجبار للوصول إليه، أنه مركبة فضاء هائلة، صنعها قوم من عالم آخر، لسبب ظل مجهولًا، حتى نهاية الرواية.

كان يقترب من صفحاتها الأخيرة، عندما غلبه النعاس، فسقط الكتاب من يده أرضًا، وهو يُسبل جفنيه، ويغوص في نوم عميق، تاركًا المصباح المجاور لفراشه مضاء.

وعلى ضوء المصباح، تحرَّك ظِل شديد السواد داخل حجرته، وامتدت يد شديدة النحول والشحوب تلتقط الرواية، وألقى عليها ذلك الكائن الطويل النحيل الشاحب نظرة سريعة، عبر عينيه شديدتي السواد، في كتلة واحدة، ثم وضعها في هدوء على المنضدة الصغيرة، لفراش الرائد فوزي، قبل أن يميل نحوه..

وبشدة.



ـ إنها تنبض.

غمغم الدكتور أحمد بالكلمات في صوت مرتجف، في حين كان

الدكتور محمد يعيد عرض الصور المتتابعة مرة، وثانية، وثالثة، قبل أن يعتدل، ويقول بدوره في توتر:

ـ بالفعل.

كان تتابع الصور، على هذا النحو البطيء نسبيًّا، جعل الأمر واضحًا، على نحو لا يمكن إنكاره..

فذلك الجسم بالغ الضآلة، كان ينبض على نحو منتظم، وسط خلايا فقدت الحياة، منذ عام تقريبًا.

وكان جسمًا صناعيًّا، لا تملك كل تكنولوجيا الأرض صنعه.

هذا ما اتفق عليه رأي العالمين، من دون أن يفصح أحدهما عن هذا.

وفي بطء، غمغم الدكتور محمد:

ـ إنه ليس جهازًا للاستقبال، كما كنت أتصور.

سأله الدكتور أحمد في شيء من الغضب:

ـ لماذا قلت إنه كذلك في البداية؟!

صمت الدكتور محمد بضع لحظات، ثم هزَّ كتفيه، وهو يقول في بطء:

ـ كان مجرد استنتاج، يتماشى مع الأحداث.

سأله الدكتور أحمد بنفس اللهجة:

ـ استنتاج علمي؟

تنهَّد الدكتور محمد وغاب في صمته لحظات أطول، قبل أن يغمغم، في شيء من الخجل والتوتر:

ـ كلا.

ثم عاد يهز كتفيه، ويشير بيده، مضيفًا:

ـ ولكنه كان يتمشى مع الأحداث.

أشار إليه الدكتور أحمد بيده، وهو يقول:

ـ لا بأس.. المهم أن لدينا الآن مجموعة من المعطيات، التي لو قمنا بحصرها، فربما يقودنا هذا إلى استنباط علمي، يكون بداية لأبحاثنا.

التفت إليه الدكتور محمد، بكل اهتمامه وفضوله العلمي، فبدأ الدكتور أحمد يلامس أنامله، واحدًا بعد الآخر، وهو يقول:

ـ أولًا: إن ذلك الجزء من مخ شيماء، كان المسؤول عن نوبات الصرع العنيفة، التي لازمتها لعشر سنوات، والتي ازدادت مع مرور الوقت، بدليل أنه مع انتزاعه من مخها، توقفت النوبات تمامًا.

وافقه الدكتور محمد بإيماءة من رأسه، من دون أي تعليق، فتابع في اهتمام:

ـ ثانيًا: عند فحص الخلايا المسؤولة عن نوبات الصرع، عثرنا على جسم بالغ الضآلة، إلى حد يعجز حتى الميكروسكوب

الإلكتروني عن كشف تفاصيله، أو معرفة طبيعته.. ثالثًا: إن ذلك الجسم، باعتباره المسؤول عن نوبات الصرع، مستقر في مخ شيماء منذ عشر سنوات، هي عمر نوباتها، أي أنه هناك، قبل حتى أن تصبح تكنولوجيا المنمنمات وسيلة معروفة على الأرض.

في هذه المرة، اقترنت إيماءة الدكتور محمد بغمغمة خافتة:

ـ هذا صحيح.

تابع الدكتور أحمد، وقد بدأ الحماس يتسلَّل إلى صوته، وكأنه يقترب من نقطة الحسم:

ـ رابعًا: أن ذلك الجسم ينبض، ويواصل عمله، على الرغم من موت الخلايا، ويبث إشارات كهرومغناطيسية منتظمة، تتوافق مع إشارات المخ البشري الطبيعية، بحيث لم نكشف هذا إلا بالمصادفة البحتة.

تحدَّث الدكتور محمد في حماس هذه المرة، وهو يقول:

ـ وخامسًا: أنه فور كشفنا لهذا، ظهر.. شيء ما، يشبه البشر، له ستة أصابع، واستولى على العيِّنة، ثم اختفى، كما لو أنه جاء من العدم وعاد إليه.

هتف الدكتور أحمد:

ـ بالضبط.

ثم مال إلى الأمام، يسأل الدكتور محمد في لهفة:

ـ فما الذي يعنيه كل هذا؟!

صمت الدكتور محمد تمامًا، وهو يتطلع إليه في حذَر قلِق، قبل أن يغمغم:

ـ لا بد أن لديك نظرية ما.

التقط الدكتور أحمد نفَسًا عميقًا، وهو يقول:

ـ بالتأكيد.

مال الدكتور محمد نحوه هذه المرة، وهو يقول في حزم:

ـ كلي آذان مصغية.

تراجع الدكتور محمد، وحاول أن يبتسم في مودَّة، وهو يقول:

ـ هل يمكنني أن أشعل غليوني؟!

انعقد حاجبَا الدكتور محمد في استنكار، فلوَّح الدكتور أحمد بيده، مستطردًا، فيما يشبه الاعتذار:

ـ إنه يساعدني على التركيز.

صمت الدكتور محمد لحظات، قبل أن يقول في حزم:

ـ فلنكمل حديثنا في الهواء الطلق إذن.

كانا يسيران وسط حديقة الفواكه، التي تحيط بمنزل الدكتور محمد الريفي، عندما نفث الدكتور أحمد دخان غليونه في استمتاع، جعله يغلق عينيه لحظات، قبل أن يقول:

ـ نظريتي تقول: إن تلك الأجسام بالغة الضآلة، لا توجد في مخ شيماء وحدها.

توقف الدكتور محمد دفعة واحدة؛ ليقول في انفعال:

ـ أتعني أنه موجود، في مخ كل مرضى الصرع؟!

هزَّ الدكتور أحمد رأسه نفيًا، وهو يجيب في ثقة:

ـ بل وحتى في أمخاخ الملايين من الأصحاء.

حدَّق الدكتور محمد في وجهه في استنكار، قبل أن يقول، في شيء من العصبية:

ـ أظن دخان الغليون هذا له تأثير ضار، يفسد القدرة على التفكير المنطقي السليم.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، قائلًا في جدية:

ـ لم أطالع بحثًا واحدًا، يشير إلى هذا.

ثم تابع، من دون أن يدرك المغزى من عبارة الدكتور محمد:

ـ حالات الصرع مسجَّلة منذ زمن طويل للغاية، ولو أن تلك الأجسام بالغة الضآلة هي المسبِّب الرئيسي لها، فهذا يعني أن هناك من يزرعها في أمخاخ البشر، منذ مئات السنين.

قال الدكتور محمد معترضًا:

ـ مستحيل! تلك التكنولوجيا المذهلة، لم تكن حتى مجرد خرافة، منذ...

قاطعه الدكتور أحمد بإشارة حاسمة من يده، وهو يتابع:

ـ نظريتي تقول: «إن ملايين البشر، منذ مئات السنين، خضعوا لتجربة جهنمية؛ للسيطرة على عقولهم، ومعظم الأمخاخ تكيَّفت مع التجربة، ولكن بعضها فشل في هذا، وتفاعل مع ذلك الجسم العجيب على نحو عدائي، كما يتفاعل الجسد مع جسم غريب».

نفث دخان غليونه مرة أخرى، وهو يلتفت في مواجهة الدكتور محمد، مكمِلًا في حزم:

ـ وهذا ما أطلقنا عليه اسم.. الصرع.

التقى حاجبًا الدكتور محمد في شدة، وهو يتطلع إليه بكل انفعاله.

فعلى الرغم من عدم اقتناعه أبدًا بوجود كائنات عاقلة في كواكب أخرى، أو بفكرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، وسكان الكواكب الأخرى، الذين يعيشون بيننا.

وعلى الرغم من أن الاستنتاج سابق لأوانه بكثير، ففي جزء من عقله، بدت له نظرية الدكتور أحمد مقبولة..

وإلى حد كبير.

كانا يقفان في مواجهة بعضهما بعضًا، في صمت تام، وسط حديقة الفواكه، التي تحيط بالمنزل الريفي.

وكانت صورتهما تلك تبدو واضحة، على شاشة هولوجرامية، معلَّقة في هواء قاعة عجيبة، تبدو أشبه بقطعة واحدة، من معدن شديد اللمعان، ويتطلع إليها كائنان أشبه بالبشر، فيما عدا أنهما طويلَا القامة على نحو زائد، وشديدَا النحول إلى حد عجيب، وعيونهما واسعة، وعبارة عن قطعة واحدة غير مميَّزة، وشديدة السواد.

وفي بطء، التفت الكائنان بعضهما إلى بعض..

ومن دون تبادل كلمة واحدة، التقتْ أفكارهما على فكرة مشتركة..

وفي بطء، عادَا يتابعان تلك الشاشة الهولوجرامية المعلَّقة..

وبمنتهى منتهى الاهتمام.

* * *

من المؤكَّد أن رجال شرطة السياحة، في منطقة أهرامات الجيزة، لم يشاهدوا في حياتهم كلها، أمرًا بهذه الغرابة!!

رجال ونساء، أتوْا جميعًا إلى منطقة الأهرامات، والتفوا حول هرم «خوفو» في دائرة شديدة الانتظام، لا يمكن تكوينها، من دون توجيه بالغ الدقة، وارتفعت رؤوسهم جميعًا في لحظة واحدة، ودقة مدهشة، كما لو أنهم يطيعون أمرًا ما، ينصبُّ على عقولهم مباشرة، ويدفعهم جميعًا إلى النظر نحو بقعة واحدة..

قمة الهرم الأكبر.

وعلى الرغم من أنهم، بوقفتهم هذه، لم يخالفوا أي قانون معروف، إلا أن رجال الشرطة حاولوا تفريقهم.

ولكن أحدًا منهم لم يستجب..

ولم يمكن زحزحته من موقعه..

ولا حتى بالقوة المفرطة.

لقد تعاون ثلاثة من مخبري الشرطة الأشداء، في محاولة لزحزحة مهندسة شابة ضئيلة الجسد من موقعها.

وعلى الرغم من العرق، الذي غمر وجوههم، لم ينجحوا في زحزحتها لسنتيمتر واحد.

كانت شاردة تمامًا، مثلها مثل الباقين، وتبدو وكأنها قد استنفرت إرادة تفوق المعتاد، لتزرع نفسها زرعًا في موقعها، وتثبِّت أنظارها على قمة الهرم.

وبعد أربعين دقيقة من المحاولات الفاشلة، تراجع رجال الشرطة ومعاونوهم، وكلهم يلهثون في توتر وإرهاق، مكتفين بمراقبة الأمر، وقد تسلَّل خوف مبهَم إلى نفوسهم.

ثم فجأة، وبعد أن اعتراهم اليأس، وأرسلوا في طلب الإمدادات العاجلة، سقط المحيطون بالهرم فجأة فاقدي الوعي..

وفي نفس اللحظة..

بالضبط.

وزاد هذا من غموض وغرابة الموقف، ومن خوف وتوتر رجال الشرطة..

ألف مرة.

* * *

ـ لم يكونوا أربعين شخصًا، بل واحدًا وأربعين.

قالها الرائد فوزي لرئيسه العقيد خيري في اهتمام زائد، جعل هذا الأخير يرفع عينيه إليه، قائلًا في عصبية:

ـ أيصنع هذا فارقًا؟!

صمت الرائد فوزي لحظة، ثم أجاب في تردُّد:

ـ لست أدري.

انعقد حاجبًا العقيد خيري في غضب، فاستدرك فوزي في سرعة:

ـ ولكن في مثل هذا النوع من القضايا، قد تكون لأية معلومة إضافية أهميتها.

ردَّد رئيسه في عصبية:

ـ هذا النوع من القضايا؟!

ثم أضاف في حدة:

ـ ومتى واجهنا مثل هذا النوع من القضايا؟!

ازدرد الرائد فوزي لعابه في صعوبة، وغمغم:

ـ رأيت أنه من الضروري أن تعلم، يا سيادة العقيد.

تطلَّع إليه العقيد خيري لحظات في توتر، ثم لانت ملامحه فجأة، لسبب غير معروف، وتراجع في مقعده، متسائلًا:

ـ وكيف لم نكشف هذا إلا الآن؟!

أجابه في سرعة، وكأنما كان يتمنى السؤال:

ـ المصاب الحادي والأربعون كان فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، كانت تقف في نهاية المنظومة، وعندما فقدت الوعي، إلى جوار الكورنيش، هرع إليها زوجان في منتصف العمر، ونقلاها بسيارتهما إلى أقرب مستشفى خاص، متصورين أنها مصابة بغيبوبة مرض السكر؛ لأن لديهما ابنة في مثل عمرها، تعاني من مرض السكر الدموي منذ مولدها، ولم ندرك ما حدث، حتى راجعنا تقارير الطوارئ، في المستشفيات الخاصة.

تراجع العقيد خيري في مقعده أكثر، وهو يغمغم:

ـ ما زلت لا أجد إضافة جديدة.

هزَّ الرائد فوزي كتفيه، وهو يقول في تردد:

ـ ولكنها معلومة جديدة.

وصمت لحظة، ثم أضاف في حذر:

ـ ومن يدري؟!

حقًّا؟!

من يدري؟!

* * *

ـ لا يمكنك إقناعي بهذا أبدًا.

قالها الدكتور محمد في عناد، وهما يجلسان على مقعدين من الخيزران، في منطقة مشمسة من حديقة الفواكه، فابتسم الدكتور أحمد، وهو يفرغ غليونه، ويعيد حشوه:

ـ ألأنك لا تؤمن بالحيوات العاقلة، على كواكب أخرى، أم...

قبل أن يتم عبارته، قاطعه الدكتور محمد في صرامة:

ـ بل لأن نظريتك لا تستند إلى أي من القواعد العلمية الأساسية.

لوَّح الدكتور أحمد بغليونه، وهو يقول:

ـ ليس هناك ما يمنع من إيجاد قواعد علمية جديدة.

حركته المفاجئة، ألقت التبغ من غليونه، فقلب شفتيه في استياء، وهو يعيد حشوه، قائلًا:

ـ وأعتقد أن هذا ما نسعى إليه منذ البداية.

أشار الدكتور محمد بسبَّابته، وهو يقول في إصرار:

ـ لا يوجد دليل واحد عليها.

تطلَّع إليه الدكتور أحمد طويلًا، وهو يتراجع في مقعده، مشعلًا غليونه، ثم نفث دخانه في بطء، قبل أن يقول:

ـ وما الدليل الذي يمكنه إقناعك؟!

فكَّر الدكتور محمد قليلًا، ثم مال إلى الأمام، وهو يقول، بأسلوب علمي محض:

ـ القاعدة العلمية تقول: إن إثبات عدم وجود الشيء، أشق كثيرًا من إثبات وجوده.. فلو قال لك أحدهم، على سبيل المثال، إن هناك بِطْريقًا ورديَّ اللون، يحيا على هذه الأرض، فسيكون عليك، لكي تثبت وجوده، أن تفحص البطاريق، حتى تجد ذلك الوردي، وعندما تجده، سيتوقَّف بحثك. أما لو أنك تريد أن تثبت عدم وجوده، فلن ينتهي بحثك، حتى تفحص كل بِطْريق، على وجه الأرض؛ فلو أنك أهملت بطريقًا واحدًا، فلن يكون لديك أي إثبات، على استحالة وجود بطريق وردي اللون.

نفث الدكتور أحمد دخان غليونه، في شيء من العصبية هذه المرة، قبل أن يقول:

ـ ألا يمكننا تجاوز هذه التفاصيل العلمية، التي يحفظها كلانا عن ظهر قلب.

أومأ الدكتور محمد برأسه موافقًا على مضض، قبل أن يقول:

ـ فليكن.. وفقًا للقاعدة نفسها، من المستحيل إثبات عدم وجود ذلك الجُسيم بالغ الضآلة، في أمخاخ كل البشر، لذا فمن الأسهل إثبات وجوده في مخ بشري لشخص طبيعي، لم يعان يومًا أعراض الصرع.

تطلَّع إليه الدكتور أحمد بضع لحظات في صمت، وهو يبدو أشبه بقاطرة قديمة، مع الدخان الكثيف، الذي يتصاعد من غليونه، ثم غمغم:

ـ شخص مثلي ومثلك؟!

وافقه الدكتور محمد بإيماءة أخرى، وهو يقول في حسم:

ـ بالضبط.

وضع الدكتور أحمد غليونه، على المنضدة الخيزرانية التي تتوسطهما، وهو يقول:

ـ وماذا لو ثبت وجوده؟!

رفع الدكتور محمد سبَّابته، قائلًا:

ـ سأضع نظريتك العجيبة في الاعتبار.

ابتسم الدكتور أحمد، وهو يتطلع إليه لحظات في صمت، ثم نهض بحركة مفاجئة، وهو يقول:

ـ يمكننا أن نبدأ الآن إذن.

نهض الدكتور محمد بدوره، وهو يسأله في دهشة:

ـ وكيف؟!

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، وهو ينفض دخان غليونه، ويتجه نحو المنزل الريفي، مجيبًا:

ـ تبحث عن أشخاص مثلي ومثلك، لديهم ذلك الجسيم في أمخاخهم.. وهذا يعني أننا نستطيع البدء بفحص...

صمت لحظة، ثم التفت إليه، مكملًا:

ـ مخك ومخي.

في نفس اللحظة، التي ارتفع فيها حاجبًا الدكتور محمد، في دهشة مستنكرة، تطلع الكائنان بالغَا الطول والنحافة إلى المشهد، على شاشاتهما الهولوجرامية المعلَّقة، في هواء تلك القاعة العجيبة.

وعندما التفتا بعضهما إلى بعض هذه المرة، كانت لديهما فكرة واضحة..

فكرة مشتركة..

ومختلفة..

جدًّا.

* * *

على الرغم من كل محاولاته، لم يستطع اللواء فاروق، مساعد وزير الداخلية، إخفاء عصبيته الشديدة، وهو يسأل العقيد مجدي:

ـ وكم كان عددهم هذه المرة؟!

أجابه العقيد مجدي في سرعة:

ـ مائة وتسعة أشخاص.. كلهم من أماكن وبلدان ومدن مختلفة..

منهم سبعون سائحًا، من دول أوروبية، وشرقية، ومن الولايات المتحدة الأمريكية.. ولا يتفقون حتى في ديانة واحدة، مما يستبعد تمامًا فكرة التنظيم الديني.

هزَّ اللواء فاروق رأسه في حدة، وهو يقول في عصبية:

ـ وما الذي جمعهم من الشرق والغرب؟! عبادة الأهرامات؟!

ابتسم العقيد مجدي على الرغم منه؛ مع الجزء الأخير من العبارة، وأجاب في هدوء، لم يجد اللواء فاروق أنه يتفق مع الموقف:

ـ تمامًا كما حدث في واقعة الإسكندرية، استعادوا جميعهم وعيهم في نفس اللحظة بالضبط، وأصابتهم حيرة شديدة، وجمعهم ارتباك شديد، ولا أحد يذكر أنه قد فعل هذا، أو يعلم حتى لماذا فعله!

تساءل اللواء فاروق في صرامة:

ـ حتى السيَّاح؟!

هزَّ العقيد مجدي رأسه، وهو يجيب:

ـ كلهم ألحَّت على عقولهم فكرة زيارة مصر، في هذه الفترة بالتحديد، وكلهم لا يدرون لماذا؟! حتى إن بعضهم ترك عمله من دون عذر واضح؛ حتى يمكنه الحضور إلى هنا.

لوح اللواء فاروق بيده في عصبية، وهو يقول:

ـ الأمر صار عالميًّا إذن.

غمغم العقيد مجدي:

ـ يبدو ذلك.

قال اللواء في حدة:

ـ ولماذا مصر؟! لماذا كان عليهم أن يفعلوا هذا في مصر؟!

هزَّ العقيد مجدي كتفيه، من دون أن يجيب، فلوَّح اللواء فاروق في وجهه بسبَّابته، وهو يقول في عصبية:

ـ للأمر علاقة بالهرم.. أراهنك على هذا.. كثير من الحمقى يرون أنه منبع كل أسرار الكون.

قال العقيد مجدي في تردد:

ـ هذا لا يفسر واقعة الإسكندرية.

تراجع اللواء فاروق في مقعده، وهو يطلق زفرة عصبية، قائلًا:

ـ جدَّ تفسيرٌ آخر إذن، يتفق مع الواقعتين.

تردد العقيد مجدي بضع لحظات، قبل أن يقول في بطء:

ـ لو أن هناك شيئًا ما، يسيطر على عقول كل هذا العدد، فهذا قد يعني أن الأمر يتجاوز عمل البحث الجنائي العادي.

حدق فيه اللواء فاروق، وهو يسأله:

ـ ماذا تعني بهذا الهراء؟!

شدَّ العقيد مجدي قامته، وتنحنح مرتين، قبل أن يقول:

ـ أعني أننا نحتاج إلى متخصِّص.

وتردد أكثر، قبل أن يضيف:

ـ في العقول.

حدَّق فيه اللواء فاروق طويلًا هذه المرة، إلا أنه لم ينطق بحرف واحد.

لقد بدت له الفكرة بالفعل منطقية ومقبولة..

إلى حد كبير.

* * *

ـ كيف سنفعلها؟!

ألقى الدكتور محمد السؤال في تحدٍّ، فابتسم الدكتور أحمد، وهو يقول:

ـ كان المفترض أن ألقي أنا هذا السؤال؛ فأنت الخبير في رصد الموجات الكهرومغناطيسية.

التفت الدكتور محمد إلى ذلك الجهاز الياباني، الذي رصد موجات عينة مخ شيماء، وتلاشى التحدي من صوته، وهو يقول:

ـ بالطبع.

ثم عاد يلتفت إلى الدكتور أحمد، مستطردًا بحماس علمي:

ـ ولكن سيكون علينا إخراج كل حيوانات التجارب.

استغرق هذا منهما نصف ساعة أخرى، قبل أن يحكم الدكتور محمد إغلاق المعمل، قائلًا:

ـ الجدران المبطنة بالرصاص، ستعزل أية مؤثرات خارجية، بحيث إن كل ما يتم رصده، سيكون نابعًا من مخَّيْنا فقط.

قال الدكتور أحمد في اهتمام قلِق:

ـ تذكَّر أن تلك الجسيمات تطلق نبضات، تتوافق مع إشارات المخ الطبيعية.

أجابه الدكتور محمد في حزم:

ـ ما دمنا نعرف تردداتها، فسيمكننا عزلها، خصوصًا وقد دفعت الجهاز إلى أقصى درجات الحساسية في الرصد.

غمغم الدكتور أحمد في توتر، لم يستطع إخفاءه:

ـ فليكن.

مضت عشر دقائق أخرى، قبل أن يبدأ الجهاز عمله، وجلس العالمان أمامه مباشرة، والدكتور محمد يقول:

ـ الْزَمِ السكون تمامًا، ولا تقم بأية حركة، أو تصدر أي صوت.

أومأ الدكتور أحمد برأسه موافِقًا، وعيناه معلقتان بشاشة الجهاز الياباني الدقيق، والتي بدأت ترتسم عليها الإشارات الكهرومغناطيسية، التي يصدرها مخاهما، و...

وفجأة، وعلى الرغم من تحذيرات الدكتور محمد، فقد انتفض جسده في عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما.

فما ارتسم على شاشة الجهاز كان مذهلًا ومفاجئًا..

إلى أقصى حد.

٧

استمع الدكتور وليد عكاشة إلى العقيد مجدي في اهتمام، انعقد معه حاجباه في شدة، في بعض المواقع، من تلك الرواية العجيبة، التي رواها له العقيد في تردد ملحوظ، وكأنما يخشى أن يتوجه اتهام الطبيب النفسي الشهير إليه، وليس إلى الحالات التي يتحدث عنها.

وعلى الرغم من دهشته الكبيرة مما يسمعه، لم يقاطعه الدكتور وليد بحرف واحد، حتى انتهى العقيد مجدي من روايته، فساد صمت تام في مكتب الطبيب النفسي، قبل أن يلتقط نفَسًا عميقًا، ويشير بيده، قائلًا:

ـ هذه لا تبدو لي حالة نفسية نمطية، أو حتى استثنائية، فما نطلق عليه اسم حالات الهلوسة الجماعية، وهو أقرب توصيف لما ذكرته، تعتمد على مؤثر خارجي، يصاب به شخص ما، كأن يرى شيئًا، يبدو له في هيئة عجيبة، فيدفع من حوله لرؤيته على النحو نفسه، أو أن تصاب فتاة بالإغماء، في فصلٍ للفتيات، فتنتشر عدوى الإغماء بين زميلاتها بالفصل، ولكن أن تنبت

فكرة واحدة، في رأس عدد كبير من الناس، من مدن وبلدان مختلفة، وتدفعهم للإتيان بعمل واحد، في توقيت واحد، ثم يصابون كلهم بفقدان الوعي، في التوقيت نفسه، على الرغم من أن أحدهم لا يملك وسيلة اتصال مباشرة بالآخرين، ولا يستطيع حتى رؤيتهم، فهذا يتجاوز كل ما رأيته ودرسته، أو حتى سمعت عنه، في أغرب الحالات النفسية المسجَّلة تاريخيًّا.

أطلق العقيد مجدي زفرة متوترة، وتراجع في مقعده، وهو يقول، فيما يشبه اليأس:

ـ ليس لديك تفسير لهذا إذن؟!

هزَّ الدكتور وليد رأسه نفيًا، وقلب شفته السفلى، وهو يهزُّ كتفيه، فأومأ العقيد مجدي برأسه متفهِّمًا، وتراجع في مقعده أكثر، وهو يقول:

ـ هذا يعيدنا إذن إلى نقطة البداية.

عاد الدكتور وليد يهزُّ كتفيه، قائلًا في خفوت:

ـ إنه ليس خللًا نفسيًّا بكل الأحوال.

ثم اعتدل فجأة، مستدركًا في اهتمام:

ـ ولكن ربما يكون...

بتر عبارته دفعة واحدة، وكأنما يخشى إكمالها، فاعتدل العقيد مجدي بدوره في لهفة، يسأله:

ـ يكون ماذا؟!

كان الدكتور وليد يتطلَّع إليه في تردد شديد، عندما ارتفع رنين هاتف العقيد مجدي فجأة، فالتقطه هذا الأخير في لهفة، وهو يقول في توتر:

- العقيد مجدي.. هل من جديد؟!

اتسعت عيناه، على نحو جذب انتباه الطبيب النفسي الشهير، فتطلع إليه مباشرة، وسمعه يقول لمحدِّثه، في صوت مضطرب:

- ومتى حدث هذا؟!

ازداد اتساع عينيه، وهو يواصل الاستماع إلى محدثه، قبل أن يغمغم في عصبية:

- سأصل على الفور.

قالها، وهو ينهض من مقعده، فسأله الدكتور وليد، في اهتمام شديد:

- ما الجديد؟!

قلب العقيد مجدي كفيه، وبدا بائسًا، وهو يجيب:

- مائة وسبع وستون سيارة، أغلق ركابها طريق الغردقة؛ بوقوفهم صفًّا واحدًا، محازٍ للبحر، وكلهم شاردون، لا يستجيبون لأية مؤثرات خارجية.

سأله الدكتور وليد في لهفة:

- وهل سيفقدون وعيهم؟!

هزَّ العقيد مجدي رأسه، وعض شفته السفلى لحظة، قبل أن يجيب في توتر:

ـ لقد فقدوه بالفعل.

وتحرك نحو الباب، مستطردًا:

ـ في توقيت واحد بالضبط.

تراجع الدكتور وليد في دهشة، وهو يعقد حاجبيه في شدة، قبل أن يستوقفه، هاتفًا:

ـ سيادة العقيد.

التفت إليه العقيد مجدي، وهو يفتح الباب، فأضاف في حزم:

ـ ابحث عن خبير بالمخ البشري.

وعاد حاجبًا العقيد مجدي ينعقدان..

بشدة.

* * *

ـ من كان يمكن أن يتخيَّل هذا؟!

غمغم بها الدكتور محمد في صوت مصدوم، فأشار الدكتور أحمد بيده، وهو يقول في اهتمام، امتزج بكثير من الانزعاج:

ـ هذا يثبت صحة نظريتي على الأقل.

أشار إليه الدكتور محمد، قائلًا في توتر:

ـ على أسوأ نحو ممكن.

وافقه الدكتور أحمد بإشارة من يده ورأسه، وهو يُخرج غليونه، ويدسه بين شفتيه، قبل أن يتذكر اتفاقهما، فينتزعه من بين شفتيه، ويعيده إلى جيبه، قائلًا:

ـ أن يحوي مخ كلٍّ منا جُسيمًا مشابِهًا، فهذا ما لم أتوقعه على الإطلاق.

وافقه الدكتور محمد بإيماءة من رأسه، قبل أن يقول:

ـ هذا يعني أن كلينا تحت السيطرة العقلية منذ البداية.

صمت الدكتور أحمد بضع لحظات، ثم قال في حسم:

ـ ربما لا يستجيب كل مخ بشري، لذلك النوع من السيطرة.

قال الدكتور محمد في عصبية:

ـ نظرية أخرى بلا إثبات.

بدا الدكتور أحمد شديد الاهتمام، وهو يقول:

ـ كيف تفسِّر محاولتهم منعنا من استكمال أبحاثنا إذن؟! لو أنهم يستطيعون السيطرة على أدمغتنا، عبر جسيماتهم هذه، لمنعونا من الاستمرار فحسب.

أجابه الدكتور محمد في حزم:

ـ ربما فعلوا، من دون أن ندري.

سأله في لهفة:

ـ وكيف هذا؟!

بدت على الدكتور محمد علامات تفكير عميق، وهو يجيب:

ـ ذلك الزائر، في حجرة الميكروسكوب الإلكتروني، والذي لم يره سوانا، مع ملامحه المخيفة، ويديه ذات الأصابع الست.. من أدراك أنه كان موجودًا هناك بالفعل؟! ربما هو مجرد صورة وهمية، رسمتها تلك الجسيمات في عقولنا، فتوهَّمنا رؤيته.

قال الدكتور أحمد معترضًا:

ـ وماذا عن ذلك الوميض، الذي أفقدنا إحساسنا بالزمن لحظات، واختفاء عيِّنة خلايا مخ شيماء.

لوَّح الدكتور محمد بيده، مجيبًا:

ـ الوميض جزء من الوهم، وربما نحن من تخلَّص من العينة، تحت سيطرة تلك الجسيمات على عقولنا، من دون أن ندري.

تراجع الدكتور أحمد متوتِّرًا، أمام ذلك التفسير المخيف، وانعقد حاجباه في شدة بضع لحظات، قبل أن يندفع، قائلًا:

ـ ولكننا لم نفعل هذا.

قال الدكتور محمد في توتر، امتزج ببعض الصرامة:

ـ ومن أدراك؟!

أجابه بنفس الاندفاع:

ـ لم يكن هناك أثر لذلك الوعاء، الذي يحوي باقي خلايا المخ.. ولو أننا تخلصنا من العينة، فأين ذهب الوعاء؟! تذكر أننا بحثنا عنه، في حجرة الميكروسكوب الإلكتروني، ولم نجد له أدنى أثر.

ظل الدكتور محمد يحدق فيه لحظات، قبل أن يقول بنفس المزيج، من التوتر والصرامة:

ـ في كل الأحوال، فمخانا يحويان تلك الجسيمات، التي لا نملك تفسيرًا مؤكَّدًا لوجودها بعد، وعلينا أن نجد السبيل للتخلُّص منها.

قال الدكتور أحمد في حزم:

ـ أحدنا يمكنه التخلص منها على الأقل.

سأله الدكتور محمد في قلق:

ـ مَن منا؟!

مال الدكتور أحمد نحوه، يسأله:

ـ هل يمكنك إجراء جراحة دقيقة في مخي؟!

اتسعت عيناه، مع ما يحويه السؤال من معنى، وقال في عصبية، وهو يهز رأسه في شدة:

ـ لا.. لن أضع مخي بين أصابعك.

قال الدكتور أحمد في حزم:

ـ ولِمَ لا؟! لست أظنك تشكُّك في مقدرتي، كجرَّاح للمخ والأعصاب.

أجابه بنفس العصبية:

ـ بالتأكيد، ولكنني لن أضع مخي بين أصابعك، مهما بلغت مهارتها.

ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف في صرامة:

ـ وخصوصًا أن هناك بديلًا.

سأله الدكتور أحمد بكل اهتمامه:

ـ وما هو؟!

شدَّ الدكتور محمد قامته، وهو يجيب في حزم:

ـ الفيزياء.

ولأن هذا بعيد عن اهتماماته العلمية، لم يستوعب الدكتور أحمد ما يمكن أن يعنيه هذا..

أبدًا.

* * *

ارتسمت دهشة كاملة، على وجه الدكتور سامح، وهو يحدق في العقيد مجدي قبل أن يغمغم في عصبية:

ـ مجدي.. كوننا أبناء عمومة، لا يعني أن تأتي إلى مقر عملي؛ لتسخر مني على هذا النحو!

بدا العقيد مجدي شديد العصبية، وهو يقول:

ـ ليس في الأمر ذرة من السخرية، وهذه هي المشكلة.. كل ما رويته لك حدث بالفعل، والوزارة كلها في حالة استنفار، ولقد أتيت إليك؛ لترشدني إلى من يمكنه تفسير كل هذه الوقائع العجيبة.

حدق الدكتور سامح في وجهه مرة أخرى، قبل أن يهزَّ رأسه، قائلًا في توتر:

ـ لو أن كل ما ذكرته صحيح كما تدَّعي، فأنت لا تبحث عن طبيب، بل عن حاوٍ، أو مؤلف من مؤلفي روايات الخيال العلمي.

لوَّح العقيد مجدي بيده، قائلًا:

ـ لقد قمنا باستشارة الدكتور وليد عكاشة، أشهر الأطباء النفسيين في مصر كلها، وأشار إلينا بالبحث عن خبير بالمخ البشري.

قال الدكتور سامح في حدة:

ـ ومن أخبرك أنني ذلك الخبير؟! أنا أعالج حالات الصرع فحسب، باستخدام العقاقير الطبية، مثل «الديباكين»، أو «التاجريتول»، أو «الرفوتريل»، وما تصفه ليس حالات صرع جماعي؛ إذ لا يوجد حتى ما يسمى بالصرع الجماعي.

قال العقيد مجدي في يأس:

ـ لم أُشر حتى إلى احتمال أن تكون ذلك الخبير، ولكنني تصوَّرت أنك تستطيع إرشادي إليه على الأقل.

وامتزج يأسه بشيء من العصبية، وهو يضيف:

ـ ثم إن لم ألجأ إلى ابن عمي، الذي يعالج أمراض المخ، فلمن ألجأ؟!

تراجع الدكتور سامح، وغمغم في توتر:

ـ أنت على حق.

ثم استغرق في تفكير عميق، قبل أن يسأل ابن عمه في اهتمام:

ـ مجدي.. هل تؤمن بالمصادفات؟!

بدا السؤال بعيدًا تمامًا عن الموضوع، فقال العقيد مجدي في عصبية:

ـ أي سؤال هذا؟!

قال الدكتور سامح، من دون أن يوقفه تعليق ابن عمه:

ـ فمنذ عام أو يزيد، حِرْنا في أمر مريضة من مرضى الصرع، كانت تصيبها نوبات عنيفة، على نحو متكرِّر في اليوم الواحد، على الرغم من أننا كنا نعالجها بجرعات مكثَّفة، من عقار «التراي ليبتال»، حتى أخضعها الدكتور أحمد عامر، جرَّاح المخ والأعصاب الأشهر لجراحة من نوع جديد، لم تعد تصاب بعدها بأية نوبات، حتى وقتنا هذا.

قال العقيد مجدي بنفس العصبية:

ـ وما علاقة هذا بموضوعنا؟!

أشار له الدكتور سامح بسبَّابته، وهو يواصل، من دون أن يتوقَّف للإجابة:

ـ بعدها بعام تقريبًا، بدأ الدكتور أحمد عامر أبحاثًا مشتركة، مع الدكتور محمد علوي، أستاذ الفيزياء التجريبية، حول التأثيرات الكهرومغناطيسية على المخ البشري، واشتراك عالمين فذَّيْن مثلهما، في بحث مشترك واحد، لا بد أن يسفر عن نتائج مدهشة، وانقلاب في فهمنا للمخ البشري.

نهض العقيد مجدي في ضجر متوتر، وهو يقول:

ـ من الواضح أنني لن أجد إجابة مطلبي لديك.

أمسك الدكتور سامح معصمه فجأة؛ ليمنعه من استكمال النهوض، وهو يكمل في شيء من الحماس:

ـ ثم تختارني أنت، من دون الأطباء جميعًا، لسؤالي عن خبير بالمخ البشري.

حاول العقيد مجدي أن ينتزع معصمه من يده، وهو يقول في حدة:

ـ اخترتك لأنك ابن عمي فحسب، ولأنني تصوَّرت أن هذا مضمارك.

هزَّ الدكتور سامح رأسه، قائلًا:

ـ بل اخترتني لأن القدر رتَّب كل هذا.

ثم أضاف في حزم:

ـ كنت تبحث عن خبير بالمخ البشري، وأنا سأرشدك إلى خبيرين.. ولو أردت رأيي، فهما أفضل خبيرين في هذا المضمار.. على الإطلاق.

كلماته الأخيرة فقط، جعلت العقيد مجدي ينتبه إليه بكل كيانه.

فقد بدا له أنها بداية خيط..

خيط، لا يعلم إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أين سينتهي طرفه الآخر؟!

وكيف؟!

* * *

ـ هل يمكنني فهم ما تفعله بالضبط بمنظاري؟!

حمل صوت الدكتور أحمد ولهجته كثيرًا من التوتر، وهو ينطق عبارته تلك، فأجابه الدكتور محمد، من دون أن يلتفت إليه:

ـ أضيف شريحة إلكترونية صغيرة إلى ذراعه.

سأله الدكتور أحمد، وهو يحاول الرؤية في صعوبة:

ـ بأي غرض؟!

مرة أخرى أجابه الدكتور محمد، من دون أن يلتفت إليه:

ـ بغرض الإفلات من فكرة الجراحة.

كان قد انتهى من عمله، واستدار يمد يده إليه بمنظاره الطبي، مستطردًا:

ـ من حسن حظنا، أن كلينا يرتدي منظارًا طبيًّا.

اختطف الدكتور أحمد المنظار من يده اختطافًا، ووضعه على عينيه، وشعر بالارتياح؛ لاستعادته قدرته على الرؤية، فقال:

ـ أعتقد أنك تدين لي بكثير من الشرح.

قال الدكتور محمد، وهو يبحث في جيوب سترته عن شيء ما:

ـ بل أعتقد أنه من الضروري أن أجد منظاري الطبي الاحتياطي أولًا.

ند من الدكتور أحمد صوتٌ أشبه بالزمجرة، وهو يقول:

ـ دكتور محمد.

ابتسم الدكتور محمد، وهو يُخرج منظاره الطبي الاحتياطي من جيبه، مجيبًا:

ـ الشريحة الإلكترونية الدقيقة، التي أضفتها إلى منظارك الطبي، والتي سأضيف مثلها إلى منظاري الطبي، أشبه بجهاز شوشرة بسيط، يحجب أية إشارات كهرومغناطيسية، تنبعث من ذلك الجسيم تحت الميكروسكوبي، المزروع في مخيْنا، أو تحاول الوصول إليه.

هتف الدكتور أحمد مبهورًا:

ـ حقًّا؟!

بدأ الدكتور محمد عمله، على ذراع منظاره الطبي، وهو يقول:

ـ أيًّا كان نوع النبضات، التي يرسلها أو يستقبلها ذلك الجسيم، فهي نبضات كهرومغناطيسية، يمكن حجبها، أو الشوشرة عليها، ما دمنا قد رصدنا وسجَّلنا تردداتها الدقيقة.

غمغم الدكتور أحمد، وهو يتحسَّس منظاره الطبي:

ـ الفيزياء؟!

أجابه الدكتور محمد، وهو منهمك في عمله، مستعينًا بمنظاره الطبي الاحتياطي:

ـ بالضبط.. أليس هذا أفضل من أصابع جرَّاح، تعبث في مخك؟!

انعقد حاجبَا الدكتور أحمد، ولم يَرُق له هذا التشبيه الأخير، ولكنه قال في شيء من الصرامة، مبعثُه حنقه فحسب:

ـ لا يمكن أن تكون قد صنعت تلك الشرائح الدقيقة هنا؛ فلا توجد إمكانيات مناسبة لذلك، في معملك الصغير.

أجابه الدكتور محمد، وهو ينهي عمله:

ـ بالطبع.. إنهما شريحتان إلكترونيتان، انتزعتهما من سماعتي أذن متطوِّرتين، تخصان والدي الراحل، رحمه الله.. فقط قمت بضبط تردداتهما، على نبضات ذلك الجسيم.

صمت الدكتور أحمد متطلّعًا إليه، وهو يعيد منظاره الطبي الاحتياطي إلى جيبه، ويرتدي المنظار الذي قام بتعديله، وغمغم:

ـ دكتور محمد.. أنت عبقري.

التقط الدكتور محمد نفَسًا عميقًا، وهو يقول:

ـ جميل منك أن تعترف بهذا.

انعقد حاجبًا الدكتور أحمد نصف انعقادة، وكأنما ندم على ما قاله، وتساءل، وهو يعيد ضبط منظاره على أنفه:

ـ هل يعني هذا أننا أصبحنا آمنين من سيطرتهم على مخينا؟!

هزَّ الدكتور محمد كتفيه، وقال:

ـ يمكنني أن أجيب بنعم، من دون أن أتفق معك تمامًا في نظريتك.

قال الدكتور أحمد في دهشة:

ـ على الرغم من كل هذا؟!

كرَّر الدكتور محمد في حزم:

ـ نعم.. على الرغم من كل هذا.

انفرجت شفتَا الدكتور أحمد، وكأنه يهمُّ بقول شيء ما، إلا أنه لم يلبث أن تراجع عن هذا، وعاد يثبِّت منظاره الطبي على أنفه، قائلًا:

ـ أظن هذا يكفي الليلة.. أعتقد أننا قد اقتربنا من منتصف الليل، وأنا أشعر بالجوع، والرغبة في النعاس.

أشار الدكتور محمد بيده، قائلًا:

ـ على الرغم من أن كلينا قد ترك ساعة يده وهاتفه المحمول في الخارج، إلا أنني أعتقد أن الساعة قد تجاوزت الثانية، بعد منتصف الليل.

غمغم الدكتور أحمد، وهو يتجه نحو الباب، ويدس غليونه بين شفتيه، استعدادًا لإشعاله:

ـ استنتاج غير علمي، ولكنه مقبول.

أشار إليه الدكتور محمد، وهو يغلق أجهزة المعمل، قائلًا:

ـ لا تفتح الباب دفعة واحدة.

ابتسم الدكتور أحمد، وهو يشعل غليونه بالفعل، على الرغم من اتفاقهما السابق، قائلًا:

ـ لماذا؟! هل تخشى أن ينتظرنا سكان الكواكب الأخرى خارجه؟!

عقد الدكتور محمد حاجبيه في ضيق، مع دخان الغليون، الذي بدأ يرتفع في سماء المعمل، في حين فتح الدكتور أحمد الباب المكسوَّ بألواح الرصاص، ودفعه في قوة، و...

واتسعت عيناه عن آخرهما.

فأمام الباب، وفي مواجهته مباشرة، كان يقف ذلك الكائن الشبيه بالبشر، بجسمه شديد الطول والنحول، يحدق فيه بعينيه شديدتي السواد، كأنهما قطعتان من البازلت الأسود اللامع.

وكان يرفع يديه شديدتي النحول، ذات الأصابع الست نحوه، في مشهد بدَا أشبه بأفلام الرعب..

أو أكثر هولًا..

بمرات.

٨

حمل صوت اللواء فاروق كل عصبيته، وهو يقول لمدير مباحث الغردقة، المقدم خالد نجيب في حدة:

- الرقم يتصاعد في كل مرة.. واحد وأربعون في الإسكندرية، ثم مائة وتسعة في الجيزة، وبعدها مائة وسبعة وستون في الغردقة.. ما السر في هذا من وجهه نظرك؟!

بدا المقدم خالد مرتبكًا حائرًا، وهو يجيب:

- لست أملك تفسيرًا واضحًا يا سيادة اللواء؛ فقد تم نقل الجميع إلى مستشفيات الغردقة والعين الساخنة، وكلهم لم يستعيدوا وعيهم بعد.

أجابه في حدة أكثر:

- سيستعيدونه.. وفي لحظة واحدة.

حدَّق المقدم خالد في وجهه بدهشة، من دون أن يملك جوابًا، فلوَّح اللواء فاروق بيده في عصبية، مضيفًا:

ـ هذا ما يحدث في كل مرة.

ردد المقدم خالد في حيرة:

ـ كل مرة؟!

زفر اللواء فاروق في توتر شديد، وقال وكأنه يحدِّث نفسه:

ـ لا يوجد تنظيم سياسي أو ديني، يملك القدرة على فعل هذا.

تردد المقدم خالد، وهو يقول:

ـ سيادة اللواء.

قاطعه اللواء فاروق بإشارة من يده، وهو يضغط زر جهاز الاتصال الداخلي إلى جواره، قائلًا في عصبية:

ـ أين العقيد مجدي؟!

أجابه مدير مكتبه، عبر الجهاز نفسه في سرعة:

ـ لم يعد بعد يا سيادة اللواء.

ضغط زر إغلاق جهاز الاتصال الداخلي في عصبية، وهو يشير بيده إلى المقدم خالد، قائلًا في حدة:

ـ عد على الفور إلى الغردقة، وأخبرني فور استعادة المصابين لوعيهم.. أريد استجوابهم بنفسي هذه المرة.

أدى المقدم خالد التحية الرسمية، وهو يتراجع قائلًا، والحيرة ما زالت تملأ وجهه:

ـ أمرك يا سيادة اللواء.

كان يهم بالاتجاه نحو الباب، إلا أنه تراجع بحركة حادة، عندما انفتح الباب فجأة، وظهر على عتبته الرائد فوزي، ومدير مكتب اللواء فاروق يندفع خلفه، هاتفًا في غضب مستنكر:

ـ ليس من القانوني أن تفعل هذا أيها الرائد.

كان الرائد فوزي يقف وقفة عسكرية صارمة، وإن بدا شارد البصر على نحو عجيب، وبينما حدق فيه اللواء فاروق، والمقدم خالد في دهشة، قال في آلية، وكأنما يردد شيئًا حفظه عن ظهر قلب:

ـ الرائد فوزي علي، من مباحث الإسكندرية.

حاول مدير مكتب اللواء فاروق جذبه خارجًا، وهو يقول في توتر:

ـ حاولت منعه يا سيادة اللواء، ولكن...

بتر عبارته في دهشة، وهو يحاول جاهدًا جذب الرائد فوزي، الذي بدا وكأنه قد تسمَّر تمامًا في موقعه، وامتزج بأرضية حجرة اللواء فاروق، وكأنما صار جزءًا منها.

ومندفعًا خارج دهشته، حاول المقدم خالد دَفْعَ الرائد فوزي خارجًا، وهو يهتف مستنكِرًا:

ـ هل جُننت أيها الرائد؟! كيف تجرؤ على اقتحام مكتب مساعد وزير الداخلية على هذا النحو؟!

أدهشه أن دفعتَه القوية لم تزحزح الرائد فوزي قيد أنملة، ولم ترفع حتى تلك النظرة الجامدة الشاردة عن عينيه، فتراجع متمتمًا في دهشة:

ـ ولكن كيف؟!

اللواء فاروق كان أول من انتزع نفسه من دهشته، وهو يقول في توتر:

ـ ما الذي جاء بك من الإسكندرية إلى هنا، من دون تكليف رسمي أيها الرائد؟! وماذا تريد؟!

عندئذٍ فقط، تقدَّم الرائد فوزي بضع خطوات إلى الأمام، حتى صار أمام مكتب اللواء فاروق مباشرة، وقال في آلية عسكرية:

ـ أسوان.. الثامنة صباحًا.. مائتان وثلاثة وعشرون.

غمغم اللواء فاروق في دهشة، شاركه فيها مدير مكتبه والمقدم خالد:

ـ ماذا؟!

كرَّر الرائد فوزي بنفس الآلية:

ـ أسوان.. الثامنة صباحًا.. مائتان وثلاثة وعشرون.

ثم دارت عيناه في محجريهما، فور انتهائه من عبارته، وهوى وسط مكتب اللواء فاروق فاقد الوعي.

واتسعت عينا اللواء فاروق في شدة، وهو يهبُّ من مقعده.

فالغموض كان يتزايد على نحو مخيف..

وسريع..

للغاية.

* * *

صدمة عنيفة أصابت العالِمين، عندما فُوجِئا بذلك الكائن، يقف أمام معملهما مباشرة، في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

طوله البالغ، ونحوله الشديد، وعيناه الشبيهتان بقطعتين من البازلت اللامع، جعلهما يتراجعان في ذعر، ما بعده ذعر.

ومع الدخان الذي يختزنه في صدره، سعل الدكتور أحمد في شدة، على نحو جعله ينفث الدخان في قوة، في وجه الكائن الذي يمد يده، ذات الأصابع الست، إليه مباشرة.

وعلى نحو عجيب، تراجع ذلك الكائن في حركة حادة، وكأنما أصابته رصاصة، وبدا وكأن وجهه الشاحب، المائل إلى الزرقة، يزداد شحوبًا وزرقة في سرعة مخيفة، قبل أن يترنح في مكانه، ثم يسقط على ظهره، كقطعة من الحجر.

وبكل ذعره، تراجع الدكتور أحمد، وهو يسعل مرة أخرى، قائلًا:

ـ الدخان.

غمغم الدكتور محمد، بكل توتر الدنيا:

ـ لا تقل لي إنه هناك فائدة واحدة لدخان غليونك هذا!

أشار الدكتور أحمد بسبَّابة مرتجفة إلى ذلك الكائن، الذي بدا جامدًا، مفتوح العينين، ملقًى على الأرض:

ـ لقد أفقده الوعي.

غمغم الدكتور محمد، وهو يقترب منه في حذر:

ـ أأنت واثق؟!

اكتفى الدكتور أحمد بإشارة من يده إلى ذلك الكائن، فجازف الدكتور محمد بالاقتراب أكثر، ومال يلقي نظرة عليه، وهو يغمغم بكل توتره:

ـ إنه ما زال مفتوح العينين.

قال الدكتور أحمد في حذر:

ـ ربما هما ليستا عينيه، وإنما جزء من قناع ما.

قال الدكتور محمد، والتوتر يأبى أن يفارقه:

ـ أتشير إلى أنه مجرد شخص عادي، يرتدي زيًّا تنكريًّا هزليًّا؟!

أشار الدكتور أحمد إلى يد الكائن، ذات الأصابع الست، وهو يقول:

ـ أو أنه يرتدي زيًّا مماثلًا لما يرتديه رواد الفضاء، عندما يذهبون إلى كوكب آخر.

لم يعاند الدكتور محمد أو يعترض هذه المرة، وإنما غمغم:

ـ ماذا سنفعل به؟! هل أقوم باستدعاء خفراء القرية؟!

قال الدكتور أحمد، وهو يستجمع شجاعته، ويقترب أكثر من ذلك الكائن:

ـ خفراء القرية للقبض على كائن فضائي؟! قل لي أرجوك إنك تمزح.

قال الدكتور محمد في عصبية:

ـ ماذا علينا أن نفعل إذن؟!

مال الدكتور أحمد كثيرًا؛ ليفحص عيني الكائن، وهو يغمغم في حيرة:

ـ لست أدري؟!! حقيقة لست أدري!!!

فجأة، ومع نهاية عبارته الحائرة، نهض ذلك الكائن.

لم ينهض جالسًا، وإنما اعتدل واقفًا دفعة واحدة، ومن دون أن ينثني جزء واحد من جسده، وكأنه مصنوع من قطعة واحدة.

وفي حركة مباغتة، أمسك معصم الدكتور أحمد، وأجبره على الاعتدال، وهو ينظر بعينيه شديدتي السواد، إلى عينيه مباشرة.

وانتفض الرجلان في عنف..

ولكن انتفاضة الدكتور أحمد كانت أكثر قوة.

لقد بدا له وكأن كل خلية من خلاياه قد انتفضت في عنف.

ثم بدأ ذلك السيل يتدفَّق إلى عقله.

سيل هائل، من البيانات والمعلومات، غرق فيه كيانه كله، واتسعت معه عيناه عن آخرهما، في حين تراجع الدكتور محمد بحركة حادة، وهو يهتف في هلع:

- يا إلهي ! يا إلهي!

وأمام عينيه، اللتين اتسعتا عن آخرهما، شاهد يد الكائن النحيلة، تسحب المنظار الطبي، عن عيني الدكتور أحمد، وتلقيه أرضًا.

واتسعت عينا الدكتور أحمد عن آخرهما أيضًا، وانتفاضات جسده تتزايد..

وتتزايد..

وتتزايد.

ثم فجأة، ارتفعت أبواق سيارة شرطة تقترب.

وهنا فقط، ترك ذلك الكائن معصم الدكتور أحمد، الذي انتفض جسده انتفاضة أخيرة، شديدة العنف، وكأنما أصابته صاعقة مباغتة.

وفي بطء، وعلى الرغم من اقتراب سيارة الشرطة، رفع ذلك الكائن راحة يده، شديدة النحول، ذات الأصابع الست، في وجهي العالمين..

وانطلق ذلك الوميض.

* * *

ـ أأنتما بخير؟!

استعادًا شعورهما دفعة واحدة، مع صوت العقيد مجدي، واتسعت عيونهما بكل الدهشة، عندما شاهدًا سيارة الشرطة تقف على بُعد متر واحد منهما، وإلى جوارهما عمدة قرية الدكتور محمد، والذي بدا شديد الارتباك والحيرة، وقد اختفى ذلك الكائن، والعقيد مجدي يقف أمامهما مباشرة، يلقي عليهما سؤاله، بكل قلق وتوتر الدنيا.

كان الدكتور محمد هو الأسرع في تمالُك نفسه، وهو يقول:

ـ معذرة أيها الضابط.. كنا نُجري تجربةً ما.

نقل العقيد مجدي بصره بينهما في توتر وشك، فأضاف الدكتور أحمد، وهو يحاول عبثًا تعديل منظاره الطبي فوق أنفه:

ـ تجربة حول القدرة على الثبات الانفعالي، بغض النظر عن أية مؤثرات خارجية.

نقل العقيد مجدي بصره بينهما في شك، قبل أن يعزو هذا إلى جنون العلماء، في حين كان الدكتور أحمد يبحث عبثًا عن منظاره فوق أنفه، وقد أدهشه أنه يستطيع الرؤية في وضوح بدونه، فانحنى الدكتور محمد يلتقط المنظار الطبي من الأرض، ويناوله إياه، قائلًا:

ـ المنظار الذي سقط منك يا دكتور أحمد.

التقط الدكتور أحمد المنظار منه في حيرة، وما إن وضعه على عينه، حتى تضاعفت حيرته ودهشته ألف مرة!!!

هذا لأنه لم يستطع الرؤية في وضوح، عندما ارتدى منظاره، كما كان يرى من دونه، على عكس ما خبره، في السنوات الطوال السابقة!!

ومن دون أن ينتبه أو يبالي بهذا الارتباك، قال العقيد مجدي للعالمين في اهتمام:

ـ نحتاج إليكما أيها السيِّدان.. أنا العقيد مجدي، من وزارة الداخلية.

سأله الدكتور محمد في دهشة:

ـ في الثالثة صباحًا؟!

انعقد حاجبًا العقيد مجدي، وهو يجيب في صرامة:

ـ إنه أمر يخص الأمن القومي.

قال الدكتور أحمد، وهو يطوي منظاره الطبي، ويعيده إلى جيبه:

ـ يبدو أنك أخطأت العنوان يا سيادة العقيد، فنحن عالمان، ولسنا رجال بحث جنائي.

قال العقيد مجدي، في صرامة أكثر، امتزجت بعصبيته:

ـ عالمان تجريان أبحاثًا مشتركة، حول المخ البشري.. أعلم هذا أيها السيدان، وهذا ما نحتاج إليه بالضبط.

تطلَّع إليه كلاهما في حيرة مشتركة، ساهم فيها القلق بشكل كبير، فأضاف هو في عصبية أكثر، وصرامة أكبر:

ـ ونحتاج إليكما فورًا.

ولم ينبس أحدهما بكلمة..

فقد لاذا بصمت، يحمل كل القلق..

وكل الخوف والحيرة..

معًا..

* * *

كانت عقارب الساعة قد فارقت الرابعة صباحًا بقليل، عندما استعاد الرائد فوزي وعيه فجأة، في مستشفى الشرطة بحي العجوزة، وحدق فيمن حوله في دهشة، متسائلًا:

ـ أين أنا؟! ماذا حدث؟!

أتاه صوت اللواء فاروق، جامعًا بين الصرامة والتوتر، وهو يقول:

ـ لماذا تركت خدمتك في الإسكندرية، من دون إذن أيها الرائد، وأتيت إلى القاهرة، في المساء السابق؟!

اتسعت عينا الرائد فوزي، وحملتا كل دهشته وفزعه، وهو يقول:

ـ القاهرة؟! أأنا الآن في القاهرة؟!

قال اللواء فاروق في حدة:

ـ لا تقل لي إنك لم تكن تعلم!

بدا الرائد فوزي أكثر فزعًا، وهو يقول:

ـ ولكنني لا أذكر حتى أنني قد فكَّرت في الذهاب إلى القاهرة يا سيادة اللواء؟! لقد غادرت منزلي في الثالثة عصرًا؛ لتسلُّم نوبتي الليلية، في مديرية أمن الإسكندرية، و...

بتر عبارته دفعة واحدة، وأطلَّت كل حيرة الدنيا من عينيه، فسأله اللواء فاروق، في عصبية أكثر:

ـ وماذا؟!

هزَّ كتفيه في توتر شديد، مجيبًا بكل الحيرة:

ـ وها أنذا هنا!!

انعقد حاجبًا اللواء فاروق، وهو يتطلع إليه بمنتهى الشك، قبل أن يميل نحوه، قائلًا في لهجة، حاول جاهدًا أن يجعلها صارمة:

ـ ألا تذكر مجيئك إلى مكتبي في الوزارة، وتلك الرسالة التي نقلتها إليَّ مباشرة.

حملت ملامح الرائد فوزي إجابة واضحة، من شدة ما ارتسم عليها من فزع، وهو يتراجع في انزعاج شديد، هاتفًا:

ـ رسالة؟! في مكتبك؟!

قال اللواء فاروق بكل عصبية:

ـ رسالة عن أسوان.. الثامنة صباحًا.. مع ذلك الرقم الذي ذكرته.

غمغم في ارتجافة شديدة:

ـ أي رقم يا سيادة اللواء؟

أجابه، وقد بدأ يفقد صبره:

ـ مائتان وثلاثة وعشرون.

تعاظمت الحيرة في وجه الرائد فوزي، وهو يقول:

ـ أنا قلت هذا؟!

اعتدل اللواء فاروق في حركة حادة، وقال في غضب:

ـ لا تتصوَّر أنك ستفلت بما فعلته أيها الرائد.. لقد أمرت بإعلان حالة الطوارئ في أسوان، حتى أعلم ما الذي سيحدث هناك بالضبط، في الثامنة صباحًا، وستخضع لاستجواب عنيف، لو أدى ما سيحدث إلى إصابة شخص واحد.

قال الرائد فوزي، في لهجة أقرب إلى الانهيار:

ـ ولكنني أقسم إنني لا أذكر حرفًا واحدًا، من كل ما تقول يا سيادة اللواء.. لا أذكر حتى أنني قد غادرت الإسكندرية، ولست أدري كيف وصلت إلى القاهرة.. شيء ما يحجب عن عقلي كل التفاصيل، وكأن.. وكأن...

صمت لحظة، اتسعت خلالها عيناه في رعب شديد، قبل أن يضيف:

ـ وكأن ما أصاب الناس، في واقعة الكورنيش، قد انتقلت عدواه إليَّ على نحو ما.

ابتعد عنه اللواء فاروق بحركة غريزية، وقال في غضب، وهو يندفع مغادرًا المكان كله:

ـ هذا ما ستثبته التحقيقات.

حدق الرائد فوزي في الباب، الذي صفقه اللواء فاروق خلفه في عنف، وهو يغادر حجرته، تاركًا جنديين لحراستها، ثم تراجع في بطء، يرقد على فراشه، وعقله يلتهب بسيل جارف من حمم الأسئلة..

ماذا أصابه؟!

وكيف غاب عن ذهنه كل هذا؟!

كيف قطع المسافة، من الإسكندرية إلى القاهرة، من دون أن يدري؟!

ولماذا؟!

وأية رسالة تلك، التي يتحدث عنها اللواء؟!

أية رسالة؟!

ثم ماذا يفترض أن يحدث في أسوان، في الثامنة صباحًا؟!

ماذا؟!

ماذا؟!

* * *

- ضع منظارك على عينيك يا دكتور أحمد..

همس بها الدكتور محمد، في أذن الدكتور أحمد، وهما يجلسان في مؤخرة سيارة الشرطة، التي تقودهما إلى القاهرة، فتحسَّس الدكتور أحمد منظاره الطبي في جيبه، وهو يهمس بدوره في توتر:

- لست أملك تفسيرًا علميًّا لهذا، إلا أنني لم أعد أستطيع الرؤية في وضوح، إلا عندما أخلعه.

أطلق زفرة خافتة، حاول كتمانها، قبل أن يضيف:

- إنني أعاني من قصر نظر، منذ أيام الجامعة، ولست أدري كيف...

قاطعه الدكتور محمد، هامسًا في حزم:

- ضعه على أية حال.. انتزع عدستيه، لو أنهما لم يعودا يناسبانك، ولكن ضعه.

غمغم الدكتور أحمد في ضيق:

- أيمكنك أن تمنح ثقتك لعالِم، يرتدي منظارًا بلا عدسات؟!

همس الدكتور محمد في صرامة:

- أليس هذا أفضل من أن يسيطر أحدهم على.. عقلك؟!

انتبه الدكتور أحمد إلى ما يعنيه الدكتور محمد، فانعقد حاجباه، وهو يلتقط منظاره الطبي من جيبه، ويجاهد لانتزاع عدستيه، فالتفت إليهما العقيد مجدي، وسألهما في توتر:

ـ أهناك ما يزعجكما؟!

أشار الدكتور محمد بيده، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

ـ إنها مجرد مناقشة علمية.

كان الدكتور أحمد قد نجح في انتزاع إحدى عدستي منظاره، فوضعها في جيبه في حرص، وسأل وهو يحاول انتزاع الأخرى:

ـ ألا يمكنك أن تعطينا فكرة، عن سر احتياجكم إلينا، يا سيادة العقيد!!

أجابه العقيد مجدي في صرامة:

ـ أُفضِّل ألا يحدث هذا، إلا بعد وصولنا إلى مبنى الوزارة.

تساءل الدكتور محمد في قلق:

ـ أهو أمر سري إلى هذا الحد.

اعتدل اللواء مجدي، وهو يجيب في صرامة:

ـ أقصى درجات السرية.

تبادل العالِمان نظرة صامتة، ثم اندفع الدكتور أحمد يسأل، وهو ينتزع العدسة الثانية من منظاره:

ـ أهو أمر يتعلق بالسيطرة على العقول؟!

وبمنتهى الحدة والدهشة والتوتر، التفت العقيد مجدي إليهما، وحدق في وجهيهما بنظرة شديدة الحدة، جعلتهما يوقنان من أن سؤال الدكتور أحمد قد أصاب الهدف..

وبمنتهى الدقة..

ومن أن نظرية الدكتور أحمد الافتراضية، كانت صحيحة..

وأيضًا بمنتهى الدقة..

إلى حد الفزع.

٩

دهشة كبيرة عمت مدينة أسوان، في تلك اللحظات المبكرة من صباح ذلك اليوم، مع الأعداد الضخمة من رجال الشرطة، وقوات الأمن المركزي، التي انتشرت في أنحاء المدينة، بكل عتَادها وعدَّتها، موحيًا بأن حدثًا كبيرًا على وشك الحدوث.

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السادسة صباحًا بعد، عندما تمركزت كل القوات في مواقعها، وظهر رجال شرطة من رتب كبيرة، وهم يشرفون على التدريبات الأمنية، ويتبادلون الاتصالات اللاسلكية فيما بينهم، كل حين وآخر.

ولأنه لم يكن هناك ما يوحي بأية اضطرابات مدنية، فقد تصوَّر بعض المبكِّرين أنها ترتيبات أمنية تقليدية، استعدادًا لزيارة من مسؤول كبير للمدينة الصغيرة الساحرة، التي يعتبرها البعض جوهرة النيل بلا منازع.

ولقد حاول البعض سؤال رجال الشرطة، عن سر كل هذه

الاستعدادات الأمنية، إلا أن كل ما تلقَّاه السائل، هو إجابة صارمة، بأن هذا أمرٌ لا يعنيه.

والواقع أن أي رجل شرطة، في أسوان كلها، أيًّا كانت رتبته، لم يكن يستطيع إجابة هذا السؤال..

هذا لأن أحدًا لا يعلم لماذا كل هذا؟!

ولا ماذا سيحدث؟!

وكيف؟!

كل ما تم إبلاغه، لمديرية أمن أسوان، هو أنه عليهم اتخاذ كل الاحتياطات؛ استعدادًا لعمل ما، سيتم في الثامنة صباحًا.

ومع غياب المعلومة الأساسية، شعر كل رجل شرطة، في أسوان كلها، بخوف مبهم..

وبحيرة مقلقة..

وبلا حدود.

* * *

تطلع اللواء فاروق في شك إلى الدكتور أحمد الذي شعر بحرج شديد، وهو يرتدي منظاره الطبي الخالي من عدستيه؛ ليطمئن إلى وجود تلك الرقاقة الإلكترونية الدقيقة، بالقرب من مخه، وخصوصًا عندما تجاهله اللواء فاروق تمامًا، والتفت إلى الدكتور محمد، يسأله في توتر:

ـ ألديك أي تفسير لما قلته، أيها الطبيب؟!

أشار الدكتور محمد إلى الدكتور أحمد، وهو يقول:

ـ الدكتور أحمد هو الطبيب.. أفضل جرَّاح مخ وأعصاب عرفته، في حياتي كلها. أما أنا، فأستاذ في الفيزياء التجريبية، وكلانا نجري أبحاثًا مشتركة بالفعل، حول التأثيرات الكهرومغناطيسية على المخ البشري.

لم يكن مساعد وزير الداخلية على دراية كبيرة، أو حتى قليلة، بالكهرومغناطيسية وتأثيراتها، إلا أنه نقل بصره مرة أخرى إلى الدكتور أحمد، وهو يُكرر، في شيء من التوتر:

ـ وهل لدى أحدكما تفسير لكل هذا؟!

تبادل العالمان نظرة صامتة، قبل أن يعدِّل الدكتور أحمد وضع منظاره على أنفه بحركة آلية، مجيبًا:

ـ أظن أن لدينا تفسيرًا قادتنا أبحاثنا إليه، إلا أننا لم نثبته بصورة قاطعة بعد.

قال اللواء فاروق في حدة:

ـ قاطعة أو غير قاطعة.. المهم أن يكون هناك تفسير ما.

عاد العالِمان يتبادلان نظرة قلقة متوترة، فقال العقيد مجدي، وهو يلقي نظرة على ساعة يده:

ـ الوقت يمضي بسرعة، ولو أنه لديكما أي تفسير، مهما كان شديد التعقيد، فالأفضل أن تخبرانا به.

بدا التردد على الرجلين، قبل أن يعقد الدكتور محمد حاجبيه، ويشيح بوجهه، وكأنه غير مستعد لما توقعه من ردود الأفعال، في حين قال الدكتور أحمد في حذر:

ـ الواقع، وفقًا لأبحاثنا، أن كل هؤلاء، الذين اشتركوا في مجموعات الوقائع الغامضة المختلفة، واقعون تحت مؤثر خارجي، يسيطر على عقولهم تمامًا، ويدفعهم للقيام بأعمال، لا يملكون دافعًا حقيقيًّا لها، ووفقًا لبرنامج خاص به، أو رسالة يحاول توصيلها.

مطَّ اللواء فاروق شفتيه، وهو يقول في عصبية:

ـ أهذا تفسير، أم وصف للموقف؟!

مرة أخرى، تبادل العالمان تلك النظرة القلقة المترددة، فقال العقيد مجدي في حزم، فرض توتره نفسه عليه:

ـ لديكما حتمًا تفسير ما.

مطَّ الدكتور محمد شفتيه مرة أخرى، وهو يقول:

ـ الدكتور أحمد لديه نظرية، تشير إلى أنه هناك جسيمات تحت الميكروسكوبية، مزروعة في أمخاخ عديد من البشر، وتتحكَّم في عقولهم، منذ زمن طويل.

تبادل اللواء فاروق والعقيد مجدي نظرة شديدة التوتر، مفعمة بمزيج من الدهشة والحيرة والقلق، قبل أن يتساءل الأول، بما أملَتْه عليه عصبيته:

ـ ومن زرع تلك الجسيمات في أمخاخهم، لو صحَّت النظرية؟!
الأمريكيون، أم تنظيم إرهابي جهنمي؟!

هزَّ الدكتور محمد رأسه نفيًا، وهو يقول في عصبية، حاول كتمانها:

ـ تكنولوجيا تلك الجسيمات، لم تتوصَّل إليها العلوم الأرضية بعد.

انعقد حاجبًا العقيد مجدي في شدة، وهو يحدق فيهما، في حين تساءل اللواء فاروق، في عصبية أكثر:

ـ من توصَّل إليها إذن؟!

أشاح الدكتور محمد بوجهه في شدة، في حين أجاب الدكتور أحمد، في شيء من الحزم:

ـ كائنات من عالم آخر.

تراجع اللواء فاروق في مقعده بحركة حادة، وكأنما أصابته لكمة مفاجئة، في حين أبعد العقيد مجدي نصفه العلوي بحركة عجيبة، وهو يحدق في العالمين بنظرة ملؤها الدهشة، وتبادل رجلَا الشرطة نظرة، لم تغب عن عيني العالِمين، تقول من دون صوت: إنهما في حكم المجنونين، في نظر قيادات الشرطة، فعاد الدكتور محمد بمقعده إلى الخلف، وكأنه يهم بالنهوض، وهو يغمغم بكل عصبية:

ـ إنها نظرية الدكتور أحمد.

رمق اللواء فاروق العقيد مجدي بنظرة استنكار واتهام، قبل أن ينهض من مقعده، ويمد يده إلى العالمين، قائلًا في غضب مكبوت:

ـ حسنًا أيها السيِّدان.. نعتذر عن إزعاجكما على هذا النحو، وحرمانكما من قضاء ليلة هادئة، أظنكما أحوج ما تكونان إليها، وستعيدكما سيارة الشرطة على الفور إلى...

قاطعه العقيد مجدي، على الرغم من مخالفة هذا لكل القواعد والأعراف:

ـ معذرة يا سيادة اللواء، ولكنني أُفضِّل أن ينتظرَا معنا بعض الوقت.

التفت إليه اللواء فاروق في غضب مستنكر، فواصل في حرج مرتبك:

ـ الساعة الآن السابعة وست دقائق، وبعد أقل من ساعة، سنعلم ما إذا كانت رسالة الرائد فوزي، الخاصة بأحداث أسوان المنتظرة، صحيحة أم لا، وربما عندئذٍ...

كان الدكتور محمد من قاطعه هذه المرة، وهو يسأله بكل الفضول:

ـ أية رسالة؟! وأية أحداث منتظرة؟!

أضاف الدكتور أحمد في اهتمام:

ـ أهو أمر يرتبط بنفس المواقف؟!

تطلع العقيد مجدي إلى اللواء فاروق، وكأنما يستأذنه في الإفصاح،

فلوَّح اللواء فاروق بيده، وهو يعاود الجلوس على مقعده، ويتشاغل بالبحث عن شيء وهمي، على سطح مكتبه، فاعتبرها العقيد مجدي موافَقة، جعلته يجيب السؤالين معًا:

ـ الرائد فوزي علي، من مباحث الإسكندرية، ترك عمله أمس، من دون إشعار، وجاء إلى القاهرة بوسيلة ما، واقتحم مكتب سيادة اللواء، على نحو لا يليق بالنظم المتَّبعة، ونقل إلينا، في شرود تام، رسالة قصيرة، من ثلاثة مقاطع.. أسوان.. الثامنة صباحًا.. مائتان وثلاثة وعشرون.. رددها مرتين، ثم سقط فاقد الوعي، كما حدث لكل الحالات الغامضة، وعندما استعاد وعيه، لم يذكر حرفًا واحدًا مما فعله أو قاله.. بل لم يدر حتى كيف انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة، ولا لماذا فعل هذا؟!

في هذه المرة، تألَّقت عينا العالمين، وهما يتبادلان نظرة طويلة، ثم تنحنح الدكتور أحمد، وقال في حماس:

ـ تلك الرسالة تعني أن أمرًا مشابهًا سيحدث في أسوان، بعد أقل من ساعة.. وسيشارك فيه مائتان وثلاثة وعشرون شخصًا، وكما حدث في الوقائع السابقة، سيصلون كلهم في نفس اللحظة، يعتريهم شرود عجيب، وبعد قليل، سيصيبهم نفس ما أصاب الآخرين.

غمغم اللواء فاروق متوترًا:

ـ سيفقدون وعيهم جميعًا.

أشار الدكتور محمد بسبَّابته، مضيفًا:

ـ وفي توقيت واحد.

امتقع وجه اللواء فاروق على نحو ملحوظ، في حين ازداد انعقاد حاجبي العقيد مجدي، وبحركة غريزية، رفع كلاهما بصره إلى ساعة الحائط، في مكتب اللواء، ومع حركة عقاربها، راح قلباهما يدق..

وبمنتهى العنف.

* * *

بكل الدهشة والتساؤل، خرج ركاب السفن السياحية في أسوان، من كافة الجنسيات، يتابعون تلك الاستعدادات الأمنية غير العادية، وكان أول ما خطر بذهن معظمهم، هو أن هناك تهديدًا ما، بالقيام بعمل إرهابي، استلزم وجود كل هذا العدد من رجال الشرطة والأمن، في كل أنحاء المدينة الساحرة، التي يأتون من كل بقاع الدنيا، للتمتُّع بجوِّها الشتوي اللطيف، ونيلها، الذي يتميز فيها بطبيعة مدهشة، تجعله أشبه بلوحة فنية تخلب الألباب.

ومع اقتراب عقارب الساعة من الثامنة، بلغ عدد السيَّاح، الذين يتابعون الموقف، ويلتقطون له عشرات الصور، ما يزيد عن ثمانمائة سائح، و...

وفجأة، وقبل دقيقة واحدة من تمام الثامنة، بدأ عدد من السيَّاح ينتظمون في طابور طويل، من دون أي سبب واضح.

ولقد بدَوْا جميعًا شاردين تمامًا، لا يستجيبون لأية مؤثرات خارجية، أو لمحاولات أقرانهم وذويهم إثارةَ انتباههم.

ومع أول دقات الثامنة، بدأ هذا الطابور يتحرَّك، في إيقاع منتظم، أشبه بخطوة عسكرية مدروسة.

وتملَّكت الدهشة الجميعَ بلا استثناء..

والخوف أيضًا.

ووقف رجال الشرطة، مع كل استعداداتهم، عاجزين، حائرين فيما ينبغي أن يفعلوا.

مائتان وثلاثة وعشرون سائحًا، من مختلف الجنسيات، ساروا في طابور طويل، أشبه بأفعى بشرية، تجوب شوارع المدينة، من دون أن يجرؤ شرطي واحد على الاقتراب منها.

ثم فجأة، توقَّف الطابور كله، في لحظة واحدة، ورفع كلُّ مَن فيه رأسَه إلى أعلى، وكأنهم ينشدون شيئًا من السماء، على نحوٍ جعل أكبر ضباط الشرطة رتبة يغمغم في عصبية:

ـ ما هذا الجنون؟!

مع نهاية كلمته، أو حتى قبل أن تكتمل، وأمام عدسات باقي السائحين، سقط كل من في الطابور فاقد الوعي، وانطلقت شوشرة عنيفة، من كل أجهزة اتصال رجال الشرطة، الذين أصابتهم صدمة شديدة..

صدمة ملؤها الدهشة..

والخوف..

والحيرة..

بلا أية حدود.

❊ ❊ ❊

وضع اللواء فاروق سماعة الهاتف، وهو ممتقع الوجه بشدة، ورفع عينيه إلى العالمين المصريين، اللذين يتطلعان إليه في لهفة وفضول، مغمغمًا بصوت مبحوح:

ـ الرسالة كانت صحيحة.

روى لهما وللعقيد مجدي، في كلمات شديدة التوتر، ما حدث هناك في أسوان، كما نقله إليه مدير أمنها، الذي كان أشد توترًا وهلعًا، خصوصًا أن الجميع من السيَّاح، والموقف تم رصده وتصويره بالكامل، وهو لا يملك جوابًا واحدًا، يمكن أن يفسِّر به الأمر لرجال الصحافة والإعلام.

ومع انتهاء مساعد الوزير من روايته، تبادل العالمان نظرة متوترة، قبل أن يقول الدكتور أحمد في انفعال:

ـ سيادة اللواء.. أعلم أن نظريتي تبدو لك جنونًا، إلا أنني أرجوك أن تعيد النظر فيها، وتأخذها مأخذ الجد.

انعقد حاجبًا العقيد مجدي وهو يحاول إقناع نفسه بالأمر، في حين بدا اللواء فاروق بائسًا يائسًا، وهو يلوِّح بكفه، مغمغمًا:

- لا يمكنني التصريح بأمر كهذا.

انتزع الدكتور أحمد منظاره الطبي، ولوَّح به في وجهه، وهو يقول، على نحو أكثر انفعالًا:

- وماذا لو أخبرتك أنني قد واجهت بالفعل، أحد تلك الكائنات الفضائية؟!

عقد الدكتور محمد حاجبيه في عصبية، وهو يشيح بوجهه، في حين تابع الدكتور أحمد:

- إنني مصاب بقصر النظر، منذ حداثتي، وعندما أمسك ذلك الكائن معصمي، شعرت بطاقة هائلة تتدفق في جسدي، وبعد أن اختفى، ذهب معه قِصَرُ النظر، ولم أعد أحتاج إلى هذا المنظار، الذي ألفْتُ وجوده فوق أنفي، أكثر من أربعين عامًا.

غمغم العقيد مجدي متوترًا:

- ولكنك ما زلت ترتديه.

قال الدكتور أحمد في سرعة، وهو يُمرِّر سبَّابته، عبر الفراغ الذي تركه انتزاع عدستي المنظار:

- بلا عدسات.

سأله اللواء فاروق في توتر أكثر، وهو يشير إلى المنظار:

- لماذا ترتديه إذن؟!

أجابه الدكتور محمد هذه المرة، وهو يعود بوجهه إليه في حزم:

- لأن هذا المنظار يحوي الوسيلة الوحيدة، التي تمنعهم من السيطرة على العقل البشري.

ثم ارتفع صوته، وهو يضيف في صرامة:

- وأنا مثلك يا سيادة اللواء، لم أقنع قطُّ بفكرة كائنات الكواكب الأخرى، أو الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، إلا وأنه، عندما يقول العلم كلمته، لست أملك سوى الانصياع لها.

وبدا شديد العصبية، مع استطراداته الغاضبة:

- أضف إلى هذا أنني أرفض وبشدة، أن ينظر أي مخلوق لي، أو للدكتور أحمد باعتبارنا مجنونين، فقط لمجرد أننا نعلم أكثر مما يعلمه أي شخص آخر، على وجه الأرض.

ران الصمت على مكتب مساعد الوزير، بعد كلمات الدكتور محمد الغاضبة، وراح الكل يتبادل نظرات شديدة التوتر، قبل أن يشير العقيد مجدي إلى منظار الدكتور أحمد الطبي، متسائلًا في صوت عصبي خافت:

- أيحوي هذا المنظار بالفعل، ما يمكنه إيقاف هذا؟!

أجابه الدكتور محمد في سرعة:

- ذراع المنظار تحوي شريحة إلكترونية صغيرة، تعمل على الشوشرة على تلك الإشارات، التي تصل إلى الجسيمات المزروعة في أدمغة بعض البشر، فتمنع السيطرة على عقولهم.

ثم شد قامته، وأدار بصره بين رجلي الشرطة، وهو يضيف، في شيء من الزهو:

ـ وهي من ابتكاري.

تبادل اللواء فاروق نظرة مع العقيد مجدي، قبل أن يقول هذا الأخير:

ـ لا أعتقد أنها يمكن أن تفيدنا.

انعقد حاجبًا الدكتور محمد في حنق، في حين قال الدكتور أحمد، وهو يلوِّح بمنظاره الخالي من عدستيه، في وجه اللواء فاروق مرة أخرى:

ـ إنها وسيلة علمية مضمونة.

تطلَّع إليه اللواء فاروق لحظات في حيرة، قبل أن يلتفت إلى العقيد مجدي وكأنما ينشد لديه الجواب، فقال هذا الأخير في حزم:

ـ لا يمكننا تعميم الفكرة على الجميع.

بدت عبارته منطقية تمامًا، فتراجع الدكتور محمد لحظةً في استنكار، ثم عاد يعقد حاجبيه في تفكير، وهو يقول:

ـ ربما أمكننا إيجاد وسيلة أكثر انتشارًا.

سأله اللواء فاروق في لهفة:

ـ مثل ماذا؟!

لم يُجب على الفور، وإنما زاد انعقاد حاجبيه، مع تضاعف علامات التفكير على وجهه، وبدا الدكتور أحمد وكأنه يهمُّ بقول شيء ما، و...

وفجأة، تجمدت نظراته، واعتدل في حركة آلية، وبدَا وكأنه قد انتقل بغتة إلى عالَم آخر، وهو يقول:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص...

بدت كلماته كمفاجأة مذهلة للكل، فالتفتوا إليه، في مزيج من الدهشة والخوف، وغمغم الدكتور محمد، بكل قلقه وتوتره:

ـ دكتور أحمد.. ماذا أصابك؟!

بدَا الدكتور أحمد شديد الشرود، وهو يُكرِّر، في آلية كاملة:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص...

اتسعت عينا الدكتور محمد في ارتياع، في حين هب اللواء فاروق من مقعده، وهو يهتف، بكل انزعاج واضطراب الدنيا:

ـ ما هذا بالضبط؟!

أدار الدكتور أحمد نظره إليه، وإن ظلَّت عيناه تحملان الشرود نفسه، وهو يقول:

ـ التاسع.. الثاني.. سلام.

تراجع العقيد مجدي مغمغمًا:

ـ رباه! هل...

كان الدكتور أحمد يهم بتكرار قوله الأخير، عندما وثب الدكتور محمد فجأة، ينتزع المنظار الطبي الخالي من العدسات من يده، ثم يضعه على أنفه بحركة حادة سريعة، وهو يهتف:

ـ لماذا نزعته؟!

وما إن فعل، حتى اتسعت عينا الدكتور أحمد، وحملتا مزيجًا من الألم والاستنكار، قبل أن يمسك رأسه هاتفًا:

ـ رباه! ماذا حدث؟! أين كنت؟!

ثم دارت عيناه في محجريهما في عنف، وسقط فاقد الوعي..

بين ذراعي الدكتور محمد..

تمامًا.

* * *

لم يشعر وزير الداخلية المصري، طوال فترة عمله، منذ كان ضابطًا صغيرًا، وحتى تبوأ منصبه هذا، بذلك التوتر العنيف، الذي شعر به، وهو يستمع إلى اللواء فاروق والعقيد مجدي، مما جعله يقول في عصبية، فور انتهائهما من روايتهما:

ـ كائنات فضائية؟! هل أصيبت الوزارة كلها بالجنون، أو إن غموض الأمر قد أفسد عقليكما؟!

كان اللواء فاروق الأكثر توترًا، وهو يجيب:

ـ كلنا نرفض هذا التفسير العجيب يا سيادة الوزير، ولكن كل الوقائع لا تضع أمامنا من سبيل، سوى افتراض هذا التفسير، على الرغم من غرابته.

قال الوزير في حدة:

ـ بل قل خياليته.

تضاعف توتر اللواء فاروق، مع عبارة الوزير، فتنحنح العقيد مجدي، قبل أن يقول في حذر:

ـ سيادة الوزير.. ما شاهدناه بأعيننا، يميل إلى تصديق هذه الفرضية، على الرغم من غرابتها.

قال الوزير، في صرامة غاضبة:

ـ ومن أدراك أن ما رأيتماه لم يكن تمثيلية متقنة، قام بها العالمان، اللذان هَرَعْتما إليهما، لإضفاء شهرة إعلامية، على بحثهما المشترك.

قال اللواء فاروق في ضيق متوتر:

ـ كلاهما يعلم أن الأمر لن يصل إلى الإعلام.

لوَّح الوزير بيده، قائلًا في حدة:

ـ هراء.. سيخرجان من هنا عدوًا، إلى كل وسائل الإعلام؛ ليصرخا بأن العالم يواجه خطرًا، ولديهما وحدهما الحل.

غمغم اللواء فاروق:

ـ سيادة الوزير.. حتى لو افترضنا هذا، فلن نجد تفسيرًا لتلك الرسالة، التي جاء الرائد فوزي، من الإسكندرية إلى القاهرة؛ لينقلها إلينا، والتي حوت تفاصيل ما حدث في اليوم التالي، بمنتهى الدقة.

قال الوزير، في إصرار:

ـ لعله متواطئ معهما، وكل هذا جزء من التمثيلية.

اندفع العقيد مجدي يقول:

ـ وهل تواطأ مائتان وثلاثة وعشرون سائحًا، من مختلف الجنسيات معهما أيضا؟!

بدا سؤاله كصعقة لمنطق الوزير، الذي تراجع في مقعده في غضب، قائلًا:

ـ ماذا لو أنه تنظيم عالمي، يستخدم وسيلة جديدة مبتكرة.. التنويم المغناطيسي مثلًا؟!

تبادل اللواء فاروق نظرة مستنجدة مع العقيد مجدي، الذي حاول الموازنة، بين وجوده في حضرة وزير الداخلية، وضرورة التوصل إلى قرار حاسم، وهو يقول:

ـ سيادة الوزير.. الكاتب الإنجليزي «آرثر كونان دويل»، مبتكر شخصية «شيرلوك هولمز»، وضع قاعدة في كتاباته، تقول:

«إذا ما استبعدنا المستحيلات، فكل ما يتبقى لدينا هو الحقيقة، مهما بلغت غرابته».

قال الوزير في حدة:

ـ وأنت لا ترى أن الكائنات الفضائية من المستحيلات، التي ينبغي استبعادها؟!

ثم مال إلى الأمام بنفس الحدة، مضيفًا:

ـ وما دمنا نتحدث عن مؤلفي الروايات البوليسية، فالكاتبة الإنجليزية الأشهر، في هذا المضمار، «أجاثا كريستي»، لديها مقولة شهيرة: «إذا ضعفت النفس، استسلمت للخرافة».. أليس عجزكما عن إيجاد تفسير مقنع لما يحدث، هو ما دفعكما لتصديق وَهْم كائنات الفضاء، وخطة السيطرة على عقول البشر؟!

تبادل الرجلان نظرة أخرى عاجزة، فاستطرد الوزير في صرامة:

ـ ألقِيَا هذه الخزعبلات خلف ظهريكما، وابحثا عن تفسير طبيعي لما نواجهه.

هَمَّ اللواء فاروق بقول شيء ما، عندما ارتفع رنين هاتفه الخاص، فتردد لحظة، ثم التقطه من جيبه، وهو يغمغم:

ـ اسمح لي يا سيادة الوزير.

أشار إليه الوزير بيده في عصبية، فضغط زر الاتصال، ووضع الهاتف على أذنه، وهو يقول:

ـ ما الجديد؟!

اتسعت عيناه في شدة، وسقط فكه الأسفل على نحو عجيب، جعل الوزير يعتدل في انتباه، في حين غمغم العقيد مجدي:

ـ ماذا حدث أيضًا؟!

ولكن اللواء فاروق لم يُجب..

فلقد كان الخبر الذي يتلقاه مذهلًا..

إلى حد مخيف.

١٠

قاعة واسعة، تبدو وكأنها مصنوعة من قطعة واحدة، بجدرانها وسُقُفها وأرضيتها، وقف وسطها الدكتور أحمد حائرًا، يتساءل أين هو؟!

وكيف وصل إلى هذا المكان؟!

بل ما هذا المكان، الذي لم ير مثله في حياته كلها!!

كانت قاعة خاوية تمامًا، إلا من أسطوانة لها نفس طبيعة الجدران والأرضية، تبرز من مركز القاعة المستديرة تمامًا، من دون أن تحوي أي شيء.

فقط قمة مسطحة منبسطة، لها نفس هذا التركيب، الذي لا يشبه أي تركيب أرضي.

كل ما حوله كان يوحي بأنه قد انتقل إلى عالم آخر..

أو زمن آخر.

ولكن العجيب أنه لم يشعر قطُّ بالخوف..

لم يشعر حتى بذرة واحدة منه..

كل شيء في كيانه كان هادئًا..

وربما أكثر مما ينبغي.

المدهش في الأمر، وعلى الرغم من غرابة كل ما حوله، شعر وكأن هناك شيئًا مألوفًا، في كل هذا..

شيء رآه من قبل..

أو خبرَهُ من قبل..

أو...

فجأة، شعر بصوت هادئ، يخترق عقله، ويتغلغل في كيانه كله:

ـ نحن زرعناه في عقلك.

وعلى الرغم من المفاجأة، احتفظ كيانه كله بهدوئه، وهو يلتفت خلفه، ليواجه ذلك الكائن مباشرة..

نفس الكائن، الذي واجهه من قبل، أمام معمل الدكتور محمد، في قرية هذا الأخير.

بالغ الطول.. شديد النحافة.. شاحب الوجه.. تميل بشرته إلى الزرقة.. عيناه واسعتان، أشبه بقطعة واحدة، من البازلت الأسود اللامع.

ـ لماذا؟! ومتى؟!

كان واثقًا من أنه قد طرح السؤال في وضوح، وأنه قد سمع نفسه يطرحه، إلا أن شفتيه لم تتحركا، ولم ينبعث الصوت من حلقه، أو يتعامل مع لسانه..

لقد طرح السؤال بعقله..

فقط بعقله.

ـ حتى لا تصدمك المواجهة.

كان من الواضح أن ذلك الكائن قد استقبل سؤاله على نحو ما؛ لأنه أجاب عليه عبر عقله أيضًا..

وبمنتهى الوضوح..

وبسرعة، ومع عقليته العلمية الفذَّة، استوعب الأمر على الفور..

إنه تخاطر عقلي مباشر..

حديث يدور بين عقله، وعقل ذلك الكائن..

مباشرة.

والعجيب أنه قد تقبَّل هذا، كما لو أنه أمرٌ اعتاده طويلًا، وكثيرًا.

ـ ولماذا تصدمني المواجهة؟! لقد واجهتك مرة من قبل.

قالها عقله، لعقل ذلك الكائن، الذي وقف ينظر إليه، بعينيه السوداوين الواسعتين، في سكون مدهش، و...

ـ لقد واجهتني أنا.

غاصت العبارة في عقله، من مصدر آخر خلفه، فالتفت ليجد نفسه أمام كائن آخر، هو نسخة طبق الأصل من الكائن الأول.

والمدهش أن هذا أيضًا لم يفاجئه..

ولم يدهشه أو يفزعه.

كان كل شيء في نفسه هادئًا، مسترخيًا، كما لو أنه في أكثر الأماكن راحة ورفاهية، على الأرض كلها.

ـ أكلكم تتشابهون؟!

قالها عقله، من دون أية مشاعر.

ـ نحن فقط.

تلقى الجواب، فور خروج السؤال من عقله.

ـ وماذا عن الآخرين؟!

ـ لا يوجد آخرون.. نحن فقط.

ـ وأين ذهب الآخرون؟!

ـ لم يعد هناك آخرون.

الحوار العقلي دار بسرعة خرافية، تفوق سرعة الكلام العادي بمرات، وكأن ادخار حركة الشفاه يختصر كثيرًا من الوقت.

ـ أين ذهب الآخرون؟! وماذا أصابهم؟!

كان عقله قد بدأ يستقبل الجواب، عندما شعر فجأة بطنين قوي في أذنيه، وتلاشت القاعة مع الكائنين من أمامه في سرعة، و...

ـ استيقظْ.

انتزعه صوت الدكتور محمد فجأة من حالة السكون، ففتح عينيه بحركة حادة، وحدق فيه مغمغمًا:

ـ أنت؟!

ابتسم الدكتور محمد ابتسامة قلقة، وهو يقول:

ـ هل أزعجتك رؤيتي، عندما استعدت وعيك؟!

رفع يده بحركة غريزية، وتحسس إطار منظاره الخالي من العدسات، والمستقر فوق أنفه، وهو يجيب، محاولًا النهوض:

ـ مطلقًا.

بدا الارتياح على وجه الدكتور محمد، وهو يقول:

ـ أنت لا تذكر بالطبع ما فعلته.

سأله في توتر، وهو ينهض جالسًا على طرف الفراش:

ـ وماذا فعلت؟!

لوَّح الدكتور محمد بيده، مجيبًا:

ـ نفس ما أصاب الآخرين، الذين شرحوا لنا ما أصابهم.. شرود مفاجئ ورسالة رقمية غير واضحة، ثم فقدان للوعي.

قال بكل دهشته:

ـ هل فعلت هذا حقًّا؟!

أومأ الدكتور محمد برأسه إيجابًا، وهو يقول:

ـ كنت تمسك منظارك، وتلوِّح به في وجه اللواء فاروق، عندما أصابتك تلك الحالة العجيبة، وعندما أسرعت بوضعه على عينيك، فقدت وعيك على الفور، وكأنني قد قطعت الاتصال، بينك وبين مصدر بث مجهول.

انعقد حاجبَا الدكتور أحمد في شدة، وعاد يتحسس منظاره في آلية، مغمغمًا بكل توتره:

ـ حقًّا؟!

عاد الدكتور محمد يومئ برأسه، قائلًا:

ـ حتى هنا، رفعوا منظارك عن عينيك، وعندما أتيت لرؤيتك منذ قليل، أعدته إلى وجهك، و...

هتف الدكتور أحمد:

ـ إذن أنت فعلتها؟! أنت...

قاطعه الدكتور محمد في دهشة، وهو يقول:

ـ فعلت ماذا؟!

لم يستطع إجابته، ما دام يجهل ما إذا كان ما رآه حلمًا أم حقيقة،

فاكتفى بهز رأسه من دون جواب، مما جعل الدكتور محمد يميل نحوه مرة أخرى، متسائلًا:

ـ ألا تذكر شيئًا مما قلته؟!

أدار عينيه إليه في حذر، يسأله:

ـ وماذا قلت بالضبط؟!

لوَّح الدكتور محمد بيده، مجيبًا:

ـ مجموعة من الأرقام.. تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. خمسة.. ص.. تسعة.. اثنين.. سلام.

حمل وجهه كل الحيرة، وهو يتساءل:

ـ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

لوَّح الدكتور محمد بيده مرة أخرى، مجيبًا بكل توتره:

ـ لسنا ندري بعد.. الرسالة التي حملها الرائد فوزي، ضابط مباحث الإسكندرية، كانت أكثر بساطة ووضوح: «أسوان.. الثامنة صباحًا.. مائتان وثلاثة وعشرون..». وهي تعني أنه سيحدث حدث ما، في مدينة أسوان، في الثامنة صباحًا، وسيشارك فيه مائتان وثلاثة وعشرون شخصًا.. وهذا ما حدث بالفعل.. أما رسالتك، فهي تبدو شديدة الغموض، وتحوي أرقامًا أكثر، وحرفًا منفصلًا، ثم كلمة «سلام».

قال، وهو يحاول رفع المنظار عن عينيه:

ـ لو أنني قلته، فهو يعني شيئًا ما حتمًا!

هزَّ الدكتور محمد كتفيه، وهو يمسك معصمه؛ ليمنعه من رفع منظاره، قائلًا:

ـ ليس لديَّ أدنى شك في هذا، ولكن أبْقِ منظارك على عينيك، حتى نستطيع فهم بعض الأمور.

غمغم الدكتور أحمد في توتر:

ـ ولكن ربما...

قبل أن يتم عبارته، ظهر العقيد مجدي، من خلف الدكتور محمد، وهو يقول في حزم:

ـ دكتور أحمد.. حمدًا لله على سلامتك.. ولو أنك قد استعدت عافيتك، فسيادة اللواء فاروق، يرغب في مقابلتكما معًا.

سأله الدكتور محمد في اهتمام:

ـ هل من جديد؟!

أومأ برأسه إيجابًا، في توتر ملحوظ، قبل أن يجيب:

ـ ظاهرة عجيبة حدثت، في عدد من مدارس محافظة الغربية.. ثلاثمائة وسبع عشرة طالبة، فقدنَ وعيهن في توقيت واحد بالضبط، في طول المحافظة وعرضها، من دون أي سبب واضح أو مفهوم!

نهض الدكتور أحمد، قبل حتى أن ينتهي العقيد مجدي من روايته، قائلًا في حزم:

ـ أنا بخير.. سنصحبك على الفور.

أما الدكتور محمد، فقد انعقد حاجباه في شدة، وانحفرت علامات التفكير العميق على وجهه في وضوح.

لقد انتبه إلى أمر ما، لم ينتبه إليه من قبل..

أمر شديد الأهمية، غاب وسط التوتر والغموض..

أمر يمكن أن يحسم كثيرًا من الأمور، ويرفع الحيرة عن النفوس، وينتزع الخوف من القلوب..

أمر له معانٍ كثيرة ومدهشة..

تمامًا.

* * *

لا تتصور أن تركك العمل من دون إذن، على هذا النحو، يمكن أن يمر من دون عقاب.

زفر إبراهيم في توتر، عندما صاح رئيسه المباشر بالعبارة في حدة، وبذل جهده؛ للحفاظ على ثبات أعصابه، وهو يغمغم:

ـ أخبرتك أنني قد فقدت الوعي في الطريق، ولديك خطاب رسمي، من الأمن العام، يؤكد أنني لم أكن أملك من أمر نفسي شيئًا.

صاح رئيسه، وهو يلوِّح بالخطاب في غضب:

ـ خطاب لا يساوي شيئًا، ولا يستند حتى إلى أي منطق؛ فما شأن الأمن العام بهذا؟! ولماذا لا تحمل خطابًا من مستشفى ما؟!

زفر إبراهيم مرة أخرى، وهو يقول:

ـ أخبرتك أنني لم أكن أحمل أية أوراق، تشير إلى هويتي، عندما تم نقلي إلى المستشفى، ولهذا...

قاطعه في مزيج من الحدة والغضب:

ـ لن يعفيك هذا أيضًا من العقاب.

كان إبراهيم يرغب في السيطرة على أعصابه، إلا أن قدرته على هذا انهارت فجأة، فاندفع يقول لرئيسه في حدة:

ـ ماذا تريد مني بالضبط؟!

تراجع رئيسه في دهشة، مع حدته المفاجأة، وقبل أن ترتسم على وجهه علامات الاستنكار، تقدَّم إبراهيم نحوه، وحملت ملامحه كثيرًا من الغضب والشراسة، وهو يواصل، ملوِّحًا بقبضته:

ـ منذ تمت ترقيتك، إلى هذا المنصب الذي لا تستحقه، وأنت مصرٌّ على التعامل معي بأسلوب فج فظ، يفتقر إلى أقل قدر من اللياقة، أو حتى الالتزام بقواعد العمل الوظيفي.

تراجع رئيسه في رعب واضح، وهو يهتف:

ـ هل جُننتَ؟! هل تحاول تهديدي؟!

قطع إبراهيم المسافة، التي تفصله عنه، بخطوة واسعة، وجذبه من رباط عنقه في شدة، وهو يميل بوجهه نحوه، مستطردًا بنفس الحدة:

- لا تريد أن تنسى أبدًا، أننا قد بدأنا العمل معًا، وأنه لولا براعتك في النفاق والتدليس، لما تمت ترقيتك.

صرخ رئيسه، في رعب مثير للشفقة:

- سأستدعي أمن الشركة.. هذا تهجُّم واضح، على رئيسك في العمل.

رفع إبراهيم قبضته، وهو يجذبه من رباط عنقه، قائلًا في شراسة:

- أتظن الأمن يمكن أن يصل إلى هنا، قبل أن تعجز أمك عن تمييز ملامحك؟!

ارتجف رئيسه في شدة، وبدا صوته أقرب إلى البكاء، وهو يهتف:

- لقد جننت.. حتمًا جننت!

كان من الواضح، لأعين باقي الموظفين والموظفات، أن قبضة إبراهيم ستهوي على فك رئيسهم المباشر، الذي يبغضونه كل البغض، بلكمة ساحقة، تمنوا أن تحيل أنفه إلى مزيج من العظام المكسورة والدم، و...

ولكن إبراهيم تجمَّد فجأة، وتوقفت قبضته في الهواء، في منتصف الطريق إلى أنف رئيسه، وشردت عيناه على نحو مباغِت، وتسمَّر في موقفه هذا لحظة، وكأنما استحال إلى صورة ثابتة، ثلاثية الأبعاد، قبل

أن يفلت رباط عنق الرجل، ثم يستدير، ويغادر الشركة كلها، على نحو أشبه برجل آلي، تلقَّى أمرًا واجب التنفيذ.

وفي دهشة بالغة، تابع الجميع ذلك الموقف العجيب، قبل أن يتنحنح رئيسهم المباشر، في عصبية شديدة، ويحاول إخفاء البلل على بنطاله، وهو يقول في حدة:

- ماذا تريدون؟!

عادوا جميعًا إلى أعمالهم في سرعة، والسؤال يعربد في رأسهم.

ماذا أصاب إبراهيم؟!

ولماذا غادر الشركة على هذا النحو؟!

لماذا؟!

* * *

حمل صوت اللواء فاروق كل دهشته وتوتره واستنكاره، وهو يحدق في وجه العالِمينِ المصريينِ، قبل أن يقول في حدة:

- الأرقام؟! ألا يشغلك غموض ما يحدث، وكل ما يثير اهتمامك، هو أعداد من شاركوا في مجموعة الحوادث غير المفسَّرة؟!

أجابه الدكتور محمد في حزم:

- أعتقد أن الأرقام هنا لها دلالة كبيرة.

حدَّق اللواء فاروق في وجهه مرة أخرى، وقال مستنكرًا:

ـ وماذا عن تلك التصرفات العجيبة؟! أليست لها أية دلالات؟!

رفع الدكتور أحمد سبَّابته، وهو يقول:

ـ زميلي العزيز، الذي أثق تمامًا في عبقريته، لديه نظرية رياضية، يمكن أن تفسِّر بعض غموض الموقف، وكل ما يحتاج إليه، هو تعاونك يا سيادة اللواء...

وصمت لحظة، ثم أضاف بكل الحزم:

ـ هذا لو أنك تسعى مخلصًا؛ للحصول على تفسير.

نقل اللواء فاروق بصره بين العالمين، وقد استفزته عبارة الدكتور أحمد الأخيرة، ثم أشار بيده، إلى العقيد مجدي، الذي شد قامته، في وقفة عسكرية صارمة، وهو يقول:

ـ في واقعة الإسكندرية، كانوا واحدًا وأربعين شخصًا، وعند هرم «خوفو»، بلغوا مائة وتسعة، ازدادوا إلى مائة وسبعة وستين، في طريق الغردقة، ثم إلى مائتين وثلاثة وعشرين في أسوان، والآن ثلاثمائة وسبعة عشر، في الغربية.

تألَّقت عينا الدكتور محمد، وهو يقول في حماس:

ـ واحد وأربعون، مائة وتسعة، ومائة وسبعة وستون، ومائتان وثلاثة وعشرون، وثلاثمائة وسبعة عشر.. ألا تدركون ما يعنيه هذا؟!

أجابه اللواء فاروق في عصبية:

ـ أن الأعداد تتزايد في كل مرة.

والتمعت عينا الدكتور أحمد، وهو يهتف، في انفعال واضح:

ـ أرقام أولية.

هتف الدكتور محمد بكل حماس:

ـ بالضبط.

بدا العقيد مجدي عصبيًّا، في حين قال اللواء فاروق في حدة:

ـ أتريدان القول إن تلك الأرقام تعني شيئًا؟!

التفت إليه الدكتور محمد، مجيبًا بكل الحماس:

ـ بالتأكيد.. لم تكن أعدادًا عشوائية، بل هي مجموعة من الأرقام منتقاة بعناية، وكلها تدخل تحت جدول الأرقام الأولية.

كان اللواء فاروق أكثر حدة، وهو يقول:

ـ وما تلك الأرقام الأولية، التي تتحدثان عنها بالله عليكما؟!

اندفع الدكتور محمد يجيب في حماس:

ـ الأرقام الأولية، هي أرقام لا تقبل القسمة إلا على نفسها، أو على الواحد الصحيح، وهي بهذا أرقام متميزة للغاية، ومعرفتها تدل على فهم كامل للرياضيات ومبادئها الأساسية.

سأله العقيد مجدي، في لهفة متوترة:

ـ أتعني أن من وراء كل هذا، يحاول فقط إثبات فهمه الشديد للرياضيات؟!

أجابه الدكتور أحمد في انفعال:

ـ بل يريدنا أن نعلم أنه يعرف هذا.

شد قامته في شدة، قبل أن يضيف في حزم:

ـ وهذا يعني أن كل ما يبدو لنا كأحداث غامضة، هو في الواقع رسالة.

ردد اللواء فاروق والعقيد مجدي، في دهشة جمعتهما معًا:

ـ رسالة؟!

لوَّح الدكتور محمد بسبَّابته، وهو يقول:

ـ لو أن الأمر اقتصر على رقم أو رقمين، لربما بدا هذا أشبه بمصادفة غير مقصودة، ولكن أن يتكرر مع كل الأرقام، فهذا يتفق مع أنه أمر مقصود، ورسالة إلى من يمكنه استيعاب الأمر.

هتف اللواء فاروق بكل عصبيته:

ـ رسالة ممن؟!

أجابه الدكتور أحمد في حماس:

ـ منهم؟!

ومع الحيرة والتوتر، أضاف الدكتور محمد:

ـ ممن كنت أستنكر وجودهم، قبل ثلاثة أيام فحسب.

تضاعف توتر وحيرة اللواء فاروق، والعقيد مجدي، وهما يتطلعان إليهما، فقال الدكتور أحمد في اهتمام:

ـ ألم تنتبها إلى أن كل الوقائع، على الرغم من غموضها، لم تشمل أية عنف، أو اعتداء، أو إيذاء من أي نوع كان.

غمغم العقيد مجدي:

ـ هذا صحيح.

قال الدكتور محمد في حماس:

ـ كلها كانت أشبه بالمسيرات السلمية، أو الوقفات الاحتجاجية المتحضرة.

هبَّ اللواء فاروق من مقعده، هاتفًا في انزعاج:

ـ إنها لعبة سياسية إذن.

هزَّ الدكتور أحمد رأسه، قائلًا:

ـ مطلقًا، وإن كانت تتبع الهدف نفسه، فالمسيرات السلمية، والوقفات الاحتجاجية، تستهدف إيصال رسالة إلى المسؤولين، تطالبهم بالانتباه إلى أمر ما، وإعادة النظر فيه.

قال اللواء فاروق، في خفوت أقرب إلى الانكسار:

ـ هذه سمات اللعبة السياسية.

أشار الدكتور محمد بسبَّابته، قائلًا:

ـ كل ما يربطها بالسياسة، هو الأسلوب فحسب.. زميلي يعني أن كل ما مرَّ من وقائع عجيبة، يستهدف توصيل رسالة ما.

ران الصمت على المكان لحظات، ثم قال العقيد مجدي في حذر:

ـ لو افترضنا هذا، فما هي تلك الرسالة بالضبط؟! أن نخشاهم؟!

انعقد حاجبَا الدكتور محمد، في حين قال الدكتور أحمد في حزم:

ـ يمكنني استبعاد هذا تمامًا.. وبمنتهى الثقة.

سأله اللواء فاروق، بنفس اللهجة:

ـ كيف يمكنك أن تجزم؟!

اندفع الدكتور محمد يقول:

ـ سأجيبك أنا.. من يمتلك مثل هذه القدرة المدهشة، على السيطرة الكاملة على عقول البشر، يمكن أن يستخدم هذا؛ لتحويلهم إلى أهداف بشرية انتحارية لو أراد، إلا أنه لم يحاول هذا، ولا مرة واحدة؛ مما يعني أنه يسعى لإيصال رسالته فحسب.

قلب اللواء فاروق كفيه في يأس، وهو يسأله:

ـ وما تلك الرسالة؟!

مرة أخرى، ران صمت عجيب على الحجرة، بدا فيه الكل قَلِقًا، مع اختلاف الأسباب، وتبادَل فيه الكلُّ أيضًا النظرات الحائرة، قبل أن يرفع الدكتور محمد سبَّابته فجأة، وهو يقول في حزم:

ـ أعلم تمامًا، أين تكمن تلك الرسالة.

التفت الكل إليه، في لهفة واضحة، فتابع بنفس الحزم:

ـ الرسالة الوحيدة، التي لم تَحْوِ أرقامًا أولية، هي الرسالة التي نطقها الدكتور أحمد، في لحظات انفصاله عن عالمنا.

غمغم الدكتور أحمد في توتر:

ـ حسبما ذكرت لي، فرسالتي حوت رقم تسعة وعشرون، وهو رقم أولي.

أجابه في حماس:

ـ هذا صحيح، ولكن باقي الأرقام ليست كذلك.. سبعة وعشرون ليس رقمًا أوليًّا، وتسعة كذلك.. ولو راجعت الرسالة، التي نقلها الرائد فوزي في شروده، فستجد أنها حوت توقيتًا، ليس أبدًا عددًا أوليًّا، وهو الثامنة صباحًا، مما يعني أنه ليس بالضرورة أن تكون الأعداد كلها أولية، إلا إذا كانت لها صلة مباشرة بالأمر.. واختلاف الأمر في رسالتك، يعني أنها ليست استكمالًا للمنظومة الرقمية الأولية، خصوصًا أن منظومة الأرقام الأولية، في كل ما سبق، كانت تسير على نحو تصاعدي، يزداد فيه الرقم في كل مرة، وهذا يعني أن رسالتك لها دلالة مختلفة تمامًا.

سأله اللواء فاروق في لهفة:

ـ وما هي هذه الدلالة بالضبط؟!

وعاد حاجبًا الدكتور محمد ينعقدان، عند هذه النقطة..

فهنا بالتحديد، تتوقف استدلالاته العلمية..

لقد أدرك أين الرسالة..

ولكنه لم يدرك دلالتها..

أبدًا.

١١

تململ أحد حارسي حجرة الرائد فوزي، في مستشفى الشرطة بحي العجوزة، وقال لزميله في ضجر واضح:

ـ لم أتصور قطُّ أن يأتي يومٌ، أقف فيه لحراسة أحد الضباط، داخل مستشفى الشرطة!

وافقه زميله بإشارة من يده، قائلًا:

ـ ولا أنا تصورت هذا.

ثم تلفَّت حوله، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، قبل أن يهمس متسائلًا:

ـ ولكن ماذا فعل، حتى يضعوه تحت الحراسة هنا؟! هل ارتكب فعلًا رهيبًا إلى هذا الحد؟!

هزَّ الأول كتفيه، وغمغم:

ـ ليس من شأننا أن نعلم.. علينا أن نؤدي واجبنا فحسب.

كان زميله يهم بقول شيء ما، عندما انفتح باب الحجرة بغتة، وظهر على عتبته الرائد فوزي، وهو يرتدي ثيابه الرسمية كاملة، فاعتدل الحارسان في سرعة، وقال أحدهما في توتر:

ـ معذرة يا سيادة الرائد، ولكن الأوامر أن...

بتر عبارته فجأة، مع تلك النظرة الشاردة العجيبة، المطلة من عيني الرائد فوزي، وتراجع خطوة في قلق، مغمغمًا:

ـ سيادة الرائد؟!

تجاوزهما فوزي بحركة آلية، وكأنه لم يشعر بوجودهما، وراح يسير عبر ممر المستشفى بخطوات ثابتة، فهتف الثاني في عصبية:

ـ سيادة الرائد.. لا يمكنك المغادرة.

واندفع نحوه؛ ليمسك ذراعه في قوة، و...

وانتفض جسده على الرغم منه.

لقد جذبه بكل ما يملك من قوة، وعلى الرغم من هذا، فهو لم يتوقَّف لحظة واحدة..

ولم يبد عليه حتى أنه قد شعر بجذبة الحارس.

والأعجب أنه قد واصل طريقه، بنفس الخطوات السابقة، جاذبًا الحارس خلفه، كما لو أنه طفل صغير، يتشبث به.

ومع دهشته وانزعاجه الشديدين، هتف الحارس بزميله:

ـ ساعدني.

تردد زميله لحظة، ثم اندفع نحوه، وحاول معاونته على جذب الرائد فوزي، وإعادته إلى حجرته..

ولكن هيهات!!

بمنتهى الثبات، وبنفس الخطوة المنتظمة، واصل فوزي طريقه، على الرغم من تشبُّث الحارسين به، وراح يجرهما خلفه، على نحوٍ أثار دهشة وفزع كل مَن شاهد الموقف.

وفي النهاية، لم يجد الحارسان بُدًّا من إفلاته، ووقفا يتطلعان إليه ذاهلينِ، لاهثينِ، ثم لم يلبث أحدهما أن رفع بندقيته، وصوَّبها إليه، هاتفًا في عصبية:

ـ توقفْ يا سيادة الرائد، وإلا...

أمسك زميله معصمه في قوة، وهو يقول في انزعاج:

ـ هل ستطلق النار على ضابط شرطة؟!

قاومه الحارس في عصبية، هاتفًا:

ـ وهل سنتركه يمضي من دون مقاومة؟!

أجابه في توتر:

ـ لقد حاولنا، ولدينا شهود على هذا.

خفض الحارس بندقيته، مع اختفاء الرائد فوزي، في نهاية ممر المستشفى، وقال في يأس:

ـ وهل نستسلم للأمر؟!

هزَّ زميله رأسه نفيًا، وقال:

ـ بل سنُبلغ أمن المستشفى، ونبلغ أمن الوزارة أيضًا، لو اقتضى الأمر.

لم يحاول الحارس مناقشته، ولكنه لم يستطع، في الوقت ذاته، أن يمنع ذلك التوتر، الذي راح يتصاعد في أعماقه..

ويتصاعد..

ويتصاعد..

بلا نهاية.

* * *

ـ ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

ألقى اللواء فاروق سؤاله، في عصبية شديدة، وهو يتطلع إلى لوح كبير أمامه، كتب عليه العقيد مجدي تلك الرسالة، التي نقلها الدكتور أحمد خلال شروده:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص.. تسعة.. اثنان.. سلام.

وبحاجبين معقودين، راح الدكتور محمد يطالع تلك الأرقام والرموز، في حين قال الدكتور أحمد في تردد:

ـ «الخامسة ص»، تعني على الأرجح الخامسة صباحًا.

غمغم العقيد مجدي في تردد:

ـ أتفق معك في هذا.. ربما تعني الرسالة، أن الحدث التالي سيقع، في تمام الخامسة صباحًا.

أضاف الدكتور محمد، وهو يشير إلى اللوحة:

ـ والكلمة الأخيرة «سلام»، ربما تعني أنه سيكون أمرًا سلميًّا، كما كانت كل الأحداث السابقة.

فقد اللواء فاروق أعصابه فجأة، وصاح في حدة:

ـ ربما.. ربما.. ربما.. حديثكم كله عبارة عن مجموعة من الاحتمالات.. ألا توجد معلومة واحدة مؤكَّدة؟!

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، قائلًا:

ـ ليس أمامنا سوى الافتراضات.

صاح في حدة أكبر:

ـ يا للعظمة.. تعلم إذن أن هناك موقفًا سلميًّا، سيحدث في الخامسة صباحًا، في مكان ما.. هل تتصوران أن يساعدنا هذا في شيء.

تبادل الدكتور أحمد مع الدكتور محمد نظرة صامتة، قبل أن يقول هذا الأخير:

ـ أظن أن الرقمين الأخيرين، يشيران إلى التاريخ.. التاسع من فبراير.. نحن الآن في السابع من فبراير، وهذا يعني أن الحدث

المنتظر، سيحدث بعد أقل من يومين، في تمام الخامسة صباحًا، من يوم التاسع من فبراير، في...

بتر عبارته دفعة واحدة، فسأله اللواء فاروق في حدة:

ـ أين؟!

هزَّ كتفيه، بعد لحظة من الصمت، قائلًا:

ـ لست أدري.

سرى توتر عجيب في الحجرة، وسط حالة من الصمت التام، الذي قطعه الدكتور أحمد، وهو يقول في توتر وتردد:

ـ ربما كانت هناك وسيلة؛ لمعرفة هذا.

التفت إليه الكل في أمل، وهتف العقيد مجدي في لهفة:

ـ كيف؟!

تردد لحظة أخرى، ثم خلع منظاره الطبي، الخالي من العدسات، وهو يجيب:

ـ بالاتصال المباشر.

بدت الدهشة على وجوههم جميعًا، وهتف الدكتور محمد في عصبية:

ـ ضع منظارك على عينيك.

هزَّ الدكتور أحمد رأسه نفيًا، وهو يقول في حزم:

ـ كلا.. لو أعدته لن يتم الاتصال المباشر.

قال الدكتور محمد في حدة:

ـ ومن أدراك أنه سيتم، لو نزعته عن عينيك؟!

تنحنح الدكتور أحمد مرتين، ثم شدَّ قامته، وهو يقول في حزم، لم يخلُ من توتر شديد:

ـ لأنه قد تم من قبل.

انتفض جسد الدكتور محمد في دهشة، وحدق اللواء فاروق والعقيد مجدي في الدكتور أحمد في ذهول، قبل أن يهتف الأخير:

ـ حقًّا؟! ومتى تم هذا؟!

قبل أن يجيب الدكتور أحمد، قال الدكتور محمد، في عصبية غاضبة:

ـ كيف لم تخبرني؟!

قال وهو يطوي ذراعي منظاره، ويدسُّه في جيبه:

ـ ليست لديَّ إجابة، يمكن تفسيرها.

انعقد حاجبًا الدكتور محمد في غضب، في حين تساءل اللواء فاروق، في تردد متوتر:

ـ وهل سيتم الاتصال الآن؟!

تراجع الدكتور أحمد؛ ليجلس على الأريكة، المواجِهة لمكتب مساعد وزير الداخلية، وهو يغمغم متوترًا:

ـ أتعشَّم هذا.

أغلق عينيه في قوة، وهو يحاول الاسترخاء على الأريكة الوثيرة، وراح يحاول اعتصار عقله؛ لدفعه إلى إجراء اتصال عقلي، مشابه لما مر من قبل.

اعتصر عقله..

واعتصره..

واعتصره..

ولكنَّ شيئًا لم يحدث..

على الإطلاق.

وعندما فتح عينيه أخيرًا، في ارتباك واضح، كانت العيون كلها تتطلع إليه، ويطلُّ منها نفس الشعور بالإخفاق..

وبخيبة الأمل..

معًا.

* * *

أمام مبنى وزارة الداخلية مباشرة، توقف إبراهيم.

كان كل شيء فيه يوحي بأنه لا يعلم حتى أين توقف.

كان شاردًا..

جامد البصر..

غائبًا عن الوجود.

ولقد رفع عينيه، نحو قمة السور المحيط بالوزارة، وكأنه يتطلع إلى شيء ما..

أو ينتظر شيئًا ما.

وكان من الطبيعي، أن يثير هذا اهتمام وقلق رجال أمن الوزارة، مما جعل أحد الضباط يتقدم منه، قائلًا في صرامة:

ـ لماذا تقف هنا؟!

لم يلتفت إبراهيم، أو يحاول أن يلتفت إليه، وهو يقول في آلية:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص.. تسعة.. اثنان.. سلام.

بدت دهشة غاضبة على الضابط، وهو يمسك ذراعه، هاتفًا في صرامة:

ـ هل تحاول السخرية منا؟!

كرر إبراهيم، بنفس الآلية الجامدة، الكلمات نفسها، فانعقد حاجبا الضابط، وهو يدفعه في صرامة، قائلًا في حدة:

ـ ابتعِد وإلَّا...

وكم كانت دهشة الضابط، وهو يبتر عبارته بغتة!!

فالقوة، التي دفع إبراهيم بها، كانت تكفي لِدَفْع رجل في ضعف حجمه مترًا كاملًا إلى الخلف على الأقل.

ولكن إبراهيم لم يتراجع قيد أنملة.

الذي تراجع هو الضابط نفسه، والذي حدق في إبراهيم بكل دهشته، وأشار إلى باقي الضباط والجنود، وهو يهتف:

ـ ما هذا بالضبط؟!

لم يكد هتافه ينطلق من حلقه، حتى انبعث صوت، له نفس تلك السمات الآلية، يقول على بُعد متر واحد خلفه:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص.. تسعة.. اثنان.. سلام.

التفت الضابط إلى مصدر الصوت الثاني، في حركة حادة متوترة، وحدق في وجه الرائد فوزي، الذي بدَا جامدًا شاردًا، على نفس النحو الذي عليه إبراهيم، وراح يكرر الكلمات نفسها بنفس الآلية؛ ليفجِّر من حوله وحول إبراهيم، موجة قوية من الدهشة..

والحيرة..

والتوتر..

والخوف..

كل الخوف.

* * *

ـ ربما هناك عامل مفقود.

قالها الدكتور محمد، وهو يعتصر عقله في شدة، فالتفت إليه الدكتور أحمد، يسأله في لهفة:

ـ وما هو في رأيك؟!

تردد الدكتور محمد لحظة، ولكنه رأى العيون كلها معلَّقة به، فغمغم في توتر:

ـ كنت فاقد الوعي، عندما تم ذلك الاتصال.

بدت الدهشة على اللواء فاروق، والحيرة على العقيد مجدي، إلا أن الدكتور أحمد بدا شديد الحماس، وهو يقول:

ـ بالضبط.. يبدو أن الاتصال الجيد يتم، في أثناء النوم العميق، أو خلال غيبوبة يمر بها العقل.

غمغم العقيد مجدي في تردد:

ـ أتعني أنه ينبغي أن نفقده الوعي.

بدا الانزعاج على وجه الدكتور أحمد، وهو يلوِّح بيده، هاتفًا:

ـ ليس بالضرورة.

ثم تنحنح في حرج، قبل أن يضيف:

ـ النوم يمكن أن يؤدي الغرض ذاته.

مطَّ العقيد مجدي شفتيه، وكأنما لا يرضيه الجواب، في حين همَّ اللواء فاروق بقول شيء ما، عندما انبعث صوت ضابط أمن المبنى،

عبر جهاز اللاسلكي، الذي يحمله العقيد مجدي طوال الوقت، وهو يقول في اضطراب واضح:

ـ سيادة العقيد.. لدينا هنا أمر، نعجز عن التعامل معه.

انتبه الكل، في توتر شديد، لما رواه ضابط أمن المبنى، عن إبراهيم والرائد فوزي، ومضت لحظة من الصمت، التفت خلالها العقيد مجدي إلى العالِمين، يسألهما المشورة، فقال الدكتور أحمد في انفعال:

ـ فليجلبوهما إلى هنا.

نقل العقيد مجدي الأمر على الفور، إلى ضابط أمن المبنى، من دون أن ينتبه إلى أنه حتى لم يستشر اللواء فاروقًا، الذي لم يحاول الاعتراض، وهو يتراجع كثيرًا في مقعده، في حين أشار الدكتور محمد إلى جهاز اللاسلكي، في يد العقيد مجدي، وهو يقول، في اهتمام كبير:

ـ هل يمكنك أن تعيرني هذه لحظة.. لديَّ ما أرغب في تجربته.

التفت العقيد مجدي إلى اللواء فاروق، الذي أومأ برأسه إيجابًا، ولوَّح بيده في الوقت ذاته، وكأنه يريد أن يقول: «إنه لن يحدث ما هو أسوأ»، فناول جهاز الاتصال اللاسلكي للدكتور محمد، الذي التقط منظار الدكتور أحمد، وهو يغمغم:

ـ وهذا أيضًا.

كان يوليهم ظهره، وهو يقف أمام النافذة، فلم يروا ما يفعله

بالضبط، حتى وصل ضابط أمن المبنى، وبصحبته إبراهيم والرائد فوزي، وهما جامدان شاردان، وإن لم يمنع هذا مساعد وزير الداخلية، من أن يقول في صرامة متوترة:

ـ كيف غادرت المستشفى من دون إذنٍ أيها الرائد؟!

وبدلًا من أن يجيب الرائد فوزي السؤال، قال في آلية، شاركه فيها إبراهيم، في توقيت واحد بالضبط، حتى إن صوتيهما بدوا كصوت واحد مزدوج:

ـ تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص.. تسعة.. اثنان.. سلام.

وبينما يحدِّق الجميع فيهما في دهشة، التفت إليهما الدكتور محمد، وهو يقول في هدوء عجيب:

ـ هلَّا كررتما ما قلتماه.

بدأ كلاهما في تكرار الرسالة، بنفس الآلية والتوافق، و...

وفجأة، بتر كلاهما حديثه، وفي لحظة واحدة بالضبط، واتسعت عيونهما معًا، وكأنما أفاقا بغتة، من حلم عجيب، وحدَّق كلاهما في المكان ذاهلينِ، وغمغم إبراهيم، في شيء من الذعر:

ـ لا.. ليس ثانية.

قالها، وجسده يترنح، فأسرع ضابط أمن المبنى يلتقطه، قبل أن يسقط، في حين التقط العقيد مجدي جسد الرائد فوزي، وهو يهتف:

ـ ماذا أصابهما؟!

رفع الدكتور محمد جهاز اللاسلكي في يده، وهو يقول، في زَهْوٍ ظافر، لم يستطع كَبْحَه:

ـ قطعتُ عنهما الاتصال.

التفت الكل إليه في دهشة كبيرة، فاز ضابط أمن المبنى بالنصيب الأكبر منها، في حين ابتسم الدكتور أحمد، مغمغمًا:

ـ كنت أتوقع لمسة عبقرية.

لوَّح الدكتور محمد بجهاز اللاسلكي، وهو يقول:

ـ لقد نقلت تلك الشريحة الإلكترونية، من ذراع منظارك إلى جهاز الاتصال اللاسلكي، فما إن يعمل، حتى يطلق موجة الشوشرة، على نطاق واسع.

هتف اللواء فاروق، وهو يقفز من مقعده، ليختطف منه جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يهتف بكل لهفته:

ـ إذن فقد فعلتها.

أجابه الدكتور أحمد، وهو يبتسم للدكتور محمد في تقدير:

ـ التجربة تثبت نجاح الفكرة، وهذا يعني أننا لو استخدمنا التردد نفسه، على نطاق عام، يمكننا إيقاف لعبة السيطرة على العقول.. على الأقل في مصر كلها.

أشار الدكتور محمد بيده، وبدا شديد الحماس، وهو يضيف إلى كلمات الدكتور أحمد:

ـ ولو نجح هذا هنا، نستطيع أن نخبر العالم كله.

غمغم العقيد مجدي في حذر:

ـ وهل سيصدقوننا؟!

أجابه الدكتور أحمد في حزم:

ـ علماؤهم سيفهمون، وسينقلون الأمر إلى ساستهم، و...

قاطعه ضابط أمن المبنى، في توتر شديد، وهو يشير إلى الرجلين فاقدي الوعي:

ـ وحتى ذلك الحين، ماذا نفعل بهما؟!

أجابه اللواء فاروق في سرعة، وكأنما كان ينتظر السؤال:

ـ تحفظْ عليهما في أقوى زنزانة هنا، حتى يستعيدا وعيهما، وضعْ طاقم حراسة كاملًا أمام زنزانتهما.

بدأ ضابط الأمن في اتخاذ الإجراءات فورًا؛ لتنفيذ أمر مساعد الوزير، في حين غمغم الدكتور أحمد في ضيق:

ـ ألم يكن من الأفضل نقلهما إلى أي مستشفى؟!

أجابه اللواء فاروق في صرامة:

ـ لن أجازف مرة أخرى.

وصمت لحظة، ثم استعاد توتره، وهو يقول:

ـ لقد تم اختيارهما؛ لينقلا إلينا الرسالة نفسها، وهذا يعني أنها رسالة شديدة الأهمية.

غمغم الدكتور محمد:

ـ ليس لديَّ أدنى شك في هذا.. وأظن أن ما توصلنا إليه صحيح إلى حد كبير.. سيتم أمر ما، على نحو سلمي تمامًا، في الخامسة من صباح التاسع من فبراير.. السؤال الذي ينقصنا هو أين؟!

اعتدل الدكتور أحمد فجأة، وهو يقول في حزم:

ـ أظنني أعلم أين؟!

التفت إليه الجميع في لهفة، فاتجه مباشرةً نحو خريطة ضخمة لـمصر، تحتل جزءًا كبيرًا من أحد جدران حجرة اللواء فاروق الواسعة، وألقى عليها نظرة سريعة، ثم وضع سبابته على نقطة محدودة منها، مكمِلًا:

ـ هنا.

وارتسمت على ملامحهم جميعًا الدهشة..

كل الدهشة.

١٢

ـ ولماذا هنا بالتحديد؟!

كان اللواء فاروق هو من ألقى السؤال، في انفعال واضح، فبادر الدكتور محمد بإجابته، قبل أن يَتفوَّه الدكتور أحمد بحرف واحد:

ـ لأن هذه هي النقطة، التي تقع على خط طول تسعٍ وعشرين درجة، وخط عرض سبعٍ وعشرين درجة، شمال خط الاستواء[١]، وشرق خط «جرينتش»[٢]، وفقًا للرسالة.. تسعة وعشرون.. سبعة وعشرون.. الخامسة.. ص.. تسعة.. اثنان.. سلام.

غمغم العقيد مجدي في اهتمام:

---

(١) خط الاستواء: دائرة كبرى وهمية، حول الكرة الأرضية، على بُعد متساوٍ من القطبين الجغرافيين، وتُشكِّل خط الأساس؛ لحساب خطوط العرض.. طولها حوالي «٣٨٦٠٠» كم، تمر بشمال «أمريكا الجنوبية»، ووسط «أفريقيا»، و«إندونسيا».

(٢) جرينتش: ضاحية جنوب شرق «لندن»، بها المرصد الفلكي، الذي تم اعتباره خط الزوال، بالنسبة لخطوط الطول الجغرافية، ويسجل منه توقيت «جرينتش».

ـ ولكن الأرقام كلها تتكرر، في الاتجاه المعاكس.

أجابه الدكتور أحمد في حزم:

ـ الأحداث كلها حدثت في مصر، ومن غير المنطقي أن يكون الموقع في مكان آخر.

ران صمت عجيب ثقيل على المكان، عقب حديث الدكتور أحمد الأخير، وراح اللواء فاروق يتراجع في مقعده في بطء، وعلى وجهه توتر ملحوظ، في حين انعقد حاجبًا العقيد مجدي في شدة، وتبادل العالِمان نظرةً تحمل شيئًا من الارتياح، قبل أن يعيد الدكتور أحمد إشارته إلى الموقع نفسه، قائلًا بكل الحزم:

ـ هنا سيتم اللقاء.

انتفض اللواء فاروق، وهو يهتف، من دون أن يقصد هذا:

ـ أي لقاء؟!

أجابه الدكتور محمد:

ـ اللقاء بيننا وبينهم.

تراجع العقيد مجدي بحركة مباغتة، كما لو أنه أصيب بضربة خفية، في حين بدا اللواء فاروق شديد العصبية، وهو يسأل:

ـ بين مَن ومَن؟!

تبادل العالِمان نظرة صامتة أخرى، ثم أشار الدكتور أحمد إلى

الدكتور محمد، وكأنما يمنحه حق الإجابة، فتنحنح هذا الأخير، وعدَّل منظاره فوق أنفه، في حركة لم يكن هناك من داعٍ لها، مجيبًا:

ـ بين مسؤولين من عالمنا، ومندوبين من عالمهم.

تراجع اللواء فاروق مرة أخرى مصدومًا، واتسعت عينا العقيد مجدي عن آخرهما، وهو يقول:

ـ مستحيل!

تنحنح الدكتور محمد مرة أخرى، وقال:

ـ هذا نفس ما كنت أتصوره، منذ أيام قليلة مضت.. لم يكن هناك شيء في الوجود، يمكن أن يقنعني بأن هناك مخلوقات من عالم آخر، تملك الذكاء والتكنولوجيا اللازمين؛ لبلوغ عالمنا، ووضع بصماتها عليه.. ولكن الأحداث الأخيرة قلبت كل مفاهيمي رأسًا على عقب.

حدق اللواء فاروق فيه، كما لو أنه يحدق في مجنون شديد الخطورة، فأشاح بوجهه في ضيق عصبي، مما دفع الدكتور أحمد إلى أن يقول:

ـ ربما بدا لكم هذا خرافيًّا، وأقرب إلى الجنون، منه إلى الواقع، ولكن هذا حال العلم منذ قرون، فقبل «نيقولا كوبرنيكوس» كان العالم يرى أن الأرض مركز الكون، وكل شيء يدور حولها، ثم وَضَعَ هو، في نهايات القرن الخامس عشر، وبدايات القرن السادس عشر، نظرية دوران الأرض حول الشمس، وأهدى

بحثه إلى البابا «بول الثاني»، الذي اعتبر نظريته كفرًا، وإجحافًا بقيمة الأرض، على الرغم من أن نظريته هذه، صارت فيما بعد أساس علم الفلك الحديث[1].

أشار الدكتور محمد بسبَّابته، وهو يضيف:

ـ وعندما أيَّد العالِم الإيطالي «جاليليو»، في القرن السابع عشر، نظرية «كوبرنيكوس»، حاكموه وأجبروه على نبذها[2]، وها هو ذا العالَم كله الآن يدرك أنها حقيقة علمية، طورت معارفنا الفلكية، ولولاها لما وصل الإنسان يومًا إلى القمر.

غمغم العقيد مجدي، محاولًا التخلي عن ذهوله:

ـ ولكننا نتحدث عن مخلوقات من عالم آخر.

أجابه الدكتور أحمد في حماس:

ـ كانوا في القرن الخامس عشر أيضًا، يتصورون أن المحيط الأطلنطي هو نهاية العالم، بعد أن فشلت سفنهم في بلوغ نهايته، وكانت لديهم قناعة شديدة، بأنه لا توجد حتمًا أية أراضٍ خلفه. وكان الحديث عن احتمال وجود حياة بشرية، في مكان ما في نهايته، أمرًا يدعو للرفض والغضب، وربما التكفير أيضًا، ولكن البرتغالي «كريستوفر كلومبوس» بدأ رحلاته الشهيرة، في عام ١٤٩٢م، ليكشف وجود

---

(١) حقيقة علمية وتاريخية.

(٢) حقيقة علمية وتاريخية

أرض هائلة خلف المحيط، وحياة كاملة هناك[1].. ولو أننا استبدلنا بالمحيط الأطلنطي الفضاء، وبسفن «كولمبس» مركبات فضائية، لوجدنا أننا أمام موقف مشابه، مع فارق أساسي.

ومال نحو اللواء فاروق، مضيفًا في حزم:

ـ إننا في القرن الحادي والعشرين.

ظل اللواء فاروق صامتًا ممتقع الوجه، يتطلع إليه في توتر شديد، قبل أن يسعل على نحو عجيب، ويقول بصوت مبحوح:

ـ لا يمكنني إخبار المسؤولين بهذا.

ـ دعني أخبرهم أنا.

نطقها الدكتور محمد، بكل الحزم والحسم، فانعقد حاجبًا العقيد مجدي في شدة، في حين بقي اللواء فاروق صامتًا، يتطلع إليه بنظرة خاوية، قبل أن يغمغم:

ـ سأدرس الفكرة.

اندفع الدكتور أحمد يقول في شيء من الحدة:

ـ ليس أمامنا وقت لهذا.. اللقاء ينبغي أن يتم خلال ساعات، تتجاوز اليوم الواحد بالكاد، والأمر يحتاج إلى كثير من الاستعدادات، وإلى قرارات على أعلى مستوى.

وأضاف الدكتور محمد في حدة واضحة:

---

(١) حقيقة تاريخية.

ـ نحن أمام أهم وأخطر حدث علمي، في تاريخ البشرية كلها، فهل ستتحمل أمام التاريخ مسؤولية التخاذل بشأنه.

بقي اللواء فاروق صامتًا، بضع لحظات أخرى، وعلى وجهه علامات تفكير مضطرب عصبي، قبل أن يلتقط سماعة هاتف خاص على مكتبه، ويقول عبره، بكل توتره:

ـ سيادة الوزير.. أحتاج إلى مقابلتك فورًا؛ لأمر عاجل.. نعم يا سيادة الوزير.. أمر بالغ الخطورة.. إلى أقصى حد.

والتقط الدكتور محمد نفَسًا عميقًا في ارتياح، في حين عقد الدكتور أحمد حاجبيه، وهو يتساءل في أعماقه: «ماذا يمكن أن تسفر عنه هذه المحادثة؟!».

ماذا؟!

* * *

لو أننا حاولنا وصف ذروة الانزعاج، لكان كل ما علينا هو أن نصف ملامح وجه وزير الداخلية، وهو يستمع إلى العالِمين المصريين.

لم تكن عقليته بقادرة، على أي حال من الأحوال، على استيعاب مثل هذه الفكرة.

مخلوقات من عالم آخر، تسيطر على عقول البشر، ويمكنها توجيههم كيفما تشاء، وعلى الرغم من هذا، فهي ترسل رسالة، عبر عقول البعض، تطلب فيها اللقاء!!

حتى أفلام الخيال العلمي، لم تصل إلى هذا التناقض!!

وعندما انتهى العالمان من حديثهما، سعل اللواء فاروق مرة أخرى في عصبية، منتظرًا بكل توتره رد فعل الوزير، في حين شد العقيد مجدي قامته، في وقفة عسكرية، كجندي ينتظر أوامر رئيسه، في حين ظل الوزير صامتًا، يحاول إقناع عقله بقبول الفكرة، قبل أن ينهض في بطء من خلف مكتبه، ويتجه نحو خريطة كبيرة لدولة مصر، مشابِهة لتلك التي في حجرة اللواء فاروق، وراح يتطلع إليها بضع لحظات، قبل أن يغمغم:

ـ المنطقة التي تتحدثان عنها، تقع بالقرب من واحة الفرافرة، وعند بئر كارولين تقريبًا.

غمغم الدكتور أحمد:

ـ شرق بئر كارولين، ببضعة كيلومترات.

عاد الوزير يتطلع إلى الخريطة، وقال في بطء:

ـ إنها منطقة غير مأهولة.

شد الدكتور محمد قامته، وهو يقول في حزم:

ـ وهذا ما يجعلها مناسبة للقاء.

التفت إليه الوزير، وتطلع إلى وجهه لحظات، ثم أدار عينيه إلى الدكتور أحمد، وكأنما يحاول دراسة الرجلين، قبل أن يعود إلى ما خلف مكتبه ويستند بجبهته على راحته اليسرى بضع لحظات

أخرى مفكرًا في عمق وصمت، احترمه الجميع، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة، حتى رفع الوزير رأسه، قائلًا:

- وهل طلبوا لقاء بعض المسؤولين بالتحديد؟!

هزَّ الدكتور محمد رأسه، مجيبًا:

- لم يطلبوا شيئًا.. فقط حدَّدوا زمان ومكان اللقاء.

مطَّ الوزير شفتيه، واستغرق في التفكير بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول، في شيء من العصبية:

- وماذا لو رفضنا مقابلتهم؟!

أجابه الدكتور أحمد في سرعة:

- سنكون قد خسرنا أعظم فرصة، أتاحها لنا القدر.

قال الوزير في عصبية:

- وماذا لو كنتما على حق، ولكنهم يستدرجون مسؤولينا؛ للقضاء عليهم بضربة واحدة؟!

تبادل العالمان نظرة صامتة، حملت كثيرًا من الغضب، قبل أن يجيب الدكتور محمد في حدة، من دون أن يراعي وجوده في حضرة الوزير:

- لو أرادوا لفعلوها، من دون الحاجة إلى لقاء.

بدا الوزير شديد الغضب، وهو يقول:

ـ هل يبدو لك أمننا هشًا، إلى هذا الحد؟!

أجابه الدكتور أحمد هذه المرة:

ـ لا تنسَ يا سيادة الوزير، أن من نقل رسالة أسوان، كان أحد رجال أمنك.

لوَّح الوزير بيده في حدة:

ـ مجرد رائد.

قال الدكتور محمد بنفس الحدة:

ـ ومن أدارك أن بعض قيادات الأمن ليست واقعة تحت سيطرتهم، منذ كانوا ملازمين؟! من أدراك أن حارسك الشخصي نفسه، بل الحارس الخاص لرئيس الجمهورية ذاته، ليس تابعًا لسيطرتهم العقلية، من دون أن يشعر.

صاح به الوزير بكل انفعاله:

ـ ومن أدراك بالعكس؟!

كاد الأمر يتحول إلى اشتباك لفظي، لولا أن اندفع الدكتور أحمد يقول:

ـ ألم تدركوا جميعًا، أننا نسير في طريق إيجابي تمامًا، من دون حتى أن ندرك هذا؟!

التفت إليه الجميع في تساؤل، فاعتدل متابعًا:

ـ سيادة الوزير يتحدث عن أهدافهم، وهذا يعني أنه لم يعد ينكر، أو يستنكر احتمال وجودهم.

تراجع الوزير في مقعده معقود الحاجبين، في حين غمغم العقيد مجدي في تلقائية:

ـ هذا صحيح.

وغمغم اللواء فاروق في عصبية:

ـ ما زلت أجد صعوبة في هذا!

واصل الدكتور أحمد، حتى لا يفقد دفة الحديث:

ـ السؤال الحقيقي الآن، هو كيف سيكون اللقاء؟! ومن ينبغي أن يلتقي بهم؟!

ازداد انعقاد حاجبي الوزير من دون تعليق، في حين سعل اللواء فاروق مرة أخرى، وقال في توتر:

ـ وكيف يمكن تأمين اللقاء؟!

غمغم الدكتور محمد، في سخرية دفينة:

ـ أتعتقد أنك قادر على هذا؟!

التفت إليه اللواء فاروق في غضب، في حين انتزع الوزير نفسه من صمته، وهو يقول في عصبية:

ـ لا ينبغي أن يذهب مسؤول واحد لتلك المقابلة.

ثم استدرك بسرعة، في عصبية أكثر:

ـ لو أنها حقيقية كما تزعمان.

قال الدكتور محمد في حزم:

ـ إنها حقيقية.

رمقه الوزير بنظرة عصبية، وقال في انفعال:

ـ لا يمكننا أن نخاطر.

قال الدكتور أحمد في سرعة:

ـ ولا يمكننا أن نضيع الفرصة في الوقت ذاته.

هتف الوزير في حدة:

ـ أية فرصة؟!

ثم هبَّ من مقعده، مستطردًا:

ـ إنه مجرد لقاء.

قال الدكتور محمد في صرامة:

ـ بل هو أعظم لقاء بين عالِمين.. لقاء ستحسدنا عليه كل دول العالم.

قال الوزير بكل الحدة:

ـ لا يبدو لي لقاءً أسطوريًّا كما تصفه.

تبدَّلت الأدوار بعد قول الوزير الأخير، وحدق فيه الدكتور محمد، كما لو كان يحدق في مجنون بالغ الخطورة، وانقلبت ملامحه على نحو عجيب، يوحي باستعداده لقول عنيف، لولا أن أمسك الدكتور أحمد يده؛ ليمنعه من قوله، وهو يواجه الوزير، ويبذل قصارى جهده للسيطرة على أعصابه، قائلًا:

- سيادة الوزير.. في عام ١٩٤٧م، وبعد انتهاء الحرب العالمية بعامين فحسب، سقط جسم مجهول الهوية، في بلدة «روزيل» بولاية «نيومكسيكو»، في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت بداخله ثلاث جثث، لكائنات من عالم آخر.

اندفع الوزير، يقول في عصبية:

- لم أسمع عن هذا قط.

تابع الدكتور أحمد، وكأنه لم يسمع تعليقه:

- وبغض النظر عن إخفاء السلطات الأمريكية لهذه الحالة، لأكثر من نصف القرن، فقد أكد بعض العلماء المتقاعدين، ممن عملوا في وكالة «ناسا» الفضائية[١]، أن التكنولوجيا، التي حصل عليها الأمريكيون، من ذلك الجسم مجهول الهوية، كان لها الفضل

(١) وكالة «ناسا»: اختصار لعبارة «الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء»، أنشئت عام ١٩٥٧م، وتُقدَّر ميزانيتها بستة عشر مليار دولار، ومسؤوليتها لا تقتصر على البرنامج الفضائي، ولكنها مسؤولة أيضًا عن الأبحاث المدنية والعسكرية الفضائية طويلة المدى، وتعتبر الوكالة الفضائية الرائدة في العالم، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

الأكبر في تطوير تكنولوجيتهم الفضائية، والفوز بسباق الوصول إلى القمر، بعد أن كان السوفييت يسبقونهم بأشواط، في السفر إلى الفضاء(١).

تنحنح الدكتور محمد، في محاولة للسيطرة على غضبه، وهو يضيف في شيء من الخشونة:

ـ وفي التسعينيات من القرن العشرين، تسرَّب فيلم سينمائي، عن تشريح أحد تلك الكائنات الفضائية، وتم نشره على نطاق واسع(٢).

تراجع الوزير في قلق شديد، بعد توضيح الدكتور أحمد الأخير، وشاركه اللواء فاروق والعقيد مجدي قلقله بنظرة متبادلة، في حين اعتدل الدكتور أحمد والدكتور محمد، في انتظار جوابه، فطال صمته دقيقة كاملة، قبل أن يرفع عينيه إلى العالمين، ويتساءل، في لهجة فقدت كثيرًا من عصبيتها وصرامتها، وحملت ملامح عجز بائس:

ـ وماذا تقترحان؟!

أجابه الدكتور محمد في حزم:

ـ أن تبدأ بإجراء اتصالاتك فورًا.

تساءل في خفوت:

---

(١) حقيقة صرح بها بعض العلماء المتقاعدين، ونشروها في مذكراتهم، وإن لم تعترف بها الحكومات الأمريكية المتعاقبة قطُّ.

(٢) اسم الفيلم «Alien Autopsy».

ـ برئيس الجمهورية؟!

أجابه الدكتور أحمد متعاطفًا:

ـ كبداية.

استعاد شيئًا من انزعاجه، وهو يغمغم:

ـ من أيضًا؟!

شد الدكتور محمد قامته، وهو يجيب في حزم:

ـ وزير الدفاع، وقائد القوات الجوية، ومدير المخابرات العامة، ورئيس المعهد القومي للبحوث، وكل من ترى أهمية وجوده في أمر كهذا.

وامتقع وجه الوزير في شدة، وبدا له أنه يواجه أصعب موقف في حياته..

أصعبها بلا منازع.

١٣

فجأة، استيقظت شيماء.

كانت قد اعتادت النوم الهادئ، منذ أكثر من عام، حتى إنها نسيت تقريبًا ما كانت تعانيه، مع نوبات الصرع المتتالية العنيفة، التي لم تكن تمنحها فرصةً للراحة والهدوء.

واعتادت الاستيقاظ الهادئ المطمئن.

أما في هذه المرة، فقد راودها حلم عجيب خلال نومها..

حُلم كان يمكن أن تصفه بأنه كابوس، لولا أنها لم تشعر خلاله بأي توتر أو خوف، أو أيٍّ من تلك الانفعالات، التي تصاحب الكوابيس في المعتاد.

لقد رأت نفسها تسير في طريق طويل، لم تَسِر فيه قطُّ من قبل.

وكان الضباب يحيط بها من كل جانب.

ثم ظهر ذلك الشخص، من وسط الضباب.

شخص شديد الطول والنحافة والشحوب، حتى لَيبدو أشبه بأحد شخصيات الرعب، في الأفلام السينمائية القديمة، وخصوصًا مع ذلك المعطف الأسود الطويل، الذي يبلغ قدميه.

ولكن العجيب أنها لم تشعر بالخوف لرؤيته..

ولا حتى بِذرَّة واحدة من الخوف.

بل على العكس تمامًا، لقد شعرت بالارتياح والهدوء، وكأنه شخص مألوف، تعرفه وتألفه منذ زمن طويل.

وفي هدوء، راح ذلك الشخص يقترب منها..

وراحت تقترب منه.

وبنفس الهدوء، مال عليها يسألها:

ـ هل شُفيت؟!

سمعتْ عبارته في وضوح، على الرغم من أنه لم ينطقها، ولم تتحرك شفتاه الرفيعتان بحرف واحد منها.

وأيضًا لم تشعر بالدهشة أو الخوف لهذا.

فقط أجابته في هدوء:

ـ حمدًا لله.

تطلع إليها بلا أي انفعال، وهو يقول، وأيضًا من دون أن يحرك شفتيه:

ـ أتعلمين أنكِ البداية؟!

تساءلتْ:

ـ بداية ماذا؟!

اعتدل مجيبًا:

ـ بداية الخلاص.

لم تفهم ما يعنيه الجواب، وصمت هو لحظة، قبل أن يضيف:

ـ والنجاة.

سألته، وحيرتُها تشتد:

ـ الخلاص والنجاة من ماذا؟!

أشار بيده، التي لاحظت في وضوح أصابعها الست، وهو يجيب:

ـ من المصير المنتظر.

لاحظت أن الضباب بدأ ينقشع مع إشارة يده، وراحت مع انقشاعه الرؤية تتضح..

وتتضح..

وتتضح..

إنها مصر..

مصر التي تعرفها، بكل ما يميزها..

النيل..

والأهرامات..

وبرج القاهرة..

ودار الأوبرا المصرية.

كانت في حلمها ترى كل هذا في مكان واحد.

ولكنها بدأت تشعر بالاضطراب والخوف.

ففي حلمها رأت برج القاهرة ينهار..

ودار الأوبرا تشتعل..

والأهرامات تتساقط..

والنيل.. نيل مصر العظيم، رأته يجف..

والدخان يغطي السماء، ويحجب ضوء الشمس.

الصورة لم تعد كما تعرفها..

لقد صارت خرابًا ودمارًا، ونيرانًا، امتزجت كلها بصرخات تنبعث من بعيد.

صرخات جعلتها تهتف:

ـ ماذا أصاب مصر؟!

فجأة، عاد كل شيء إلى ما كان عليه..

الأهرامات شامخة..

وبرج القاهرة صامد مرتفع..

والأوبرا تصدح بغناء عذب..

والمياه العذبة تجري في نهر النيل، وتنعكس عليها أشعة الشمس المشرقة..

وعادت هي تشعر بالهدوء والراحة.

وعاد ذلك الطويل النحيل الشاحب ينحني نحوها، ويمد يده، ذات الأصابع الست؛ ليلمس وجهها، وهو يقول، من دون أن تنفرج شفتيه كالمعتاد:

ـ واحة الفرافرة.. شرق بئر كارولين بسبعة كيلومترات.

ثم اعتدل مضيفًا:

ـ سننتظرك.. في الخامسة صباحًا.

واستيقظت.

لم يكن الهدوء والارتياح قد فارقاها بعد، عندما غادرت حجرتها، واتجهت نحو حجرة المعيشة، حيث استقبلها والدها بابتسامة كبيرة، وسألتها والدتها في حنان:

ـ هل نمت جيدًا؟!

أومأت برأسها إيجابًا، قبل أن تسأل والدها في اهتمام:

ـ أبي.. هل تعرف واحة الفرافرة؟!

بدت الدهشة على أبويها، وسألها والدها:

ـ بالطبع.. إنها إحدى واحات الصحراء الغربية.. ترى ما سر السؤال؟!

لم تجب سؤاله؛ لأنها لا تملك جوابًا، ولكنها عادت تسأله، في اهتمام أكثر:

ـ هل يوجد إلى جوارها ما يسمى ببئر كارولين؟!

ارتفع حاجبًا أمها بكل الدهشة، في حين قال الوالد، في مزيج من الحيرة والقلق:

ـ لست أدري! من أين جئت بالاسم؟! لقد شاهدنا التلفاز جميعًا معًا أمس، ولم يأت ذِكر هذا قط!

سألته، في لهفة ضاعفت من دهشة أبويها وقلقهما:

ـ هل توجد وسيلة لنعرف؟!

أجاب والدها في تردد:

ـ بالتأكيد.

وأضافت أمها في قلق:

ـ ستجدين أية معلومة تريدينها، على شبكة الإنترنت.

ثم استطردت في توتر:

ـ ولكن لماذا؟!

هزّت شيماء كتفيها، مجيبة:

ـ لست أدري.. أريد أن أعرف فحسب.

نهضت الأم إلى جهاز الكمبيوتر، وراحت أصابعها تضرب أزراره، قبل أن تتراجع، قائلة بكل الدهشة:

ـ هناك بالفعل مكان، بالقرب من واحة الفرافرة، يحمل هذا الاسم!

ثم التفتت إلى ابنتها، متسائلة:

ـ ولكن كيف عرفته أنت؟!

صمتت شيماء، تتطلع إلى والديها في قلق، وبدأت تشعر بالتوتر، لأول مرة منذ أن استيقظت، فاتجه والدها إليها، وأمسك كتفيها في حنان، وهو يقول:

ـ أخبرينا ما لديك يا شيماء.. أرجوك.

اغرورقتْ عيناها بدموع التوتر، وهي تغمغم:

ـ ليس لديَّ حقًّا ما أخبركما به، ولكنني أعلم شيئًا واحدًا فحسب.

هتفت أمها في لهفة ولوعة:

ـ وما هو؟!

نقلت شيماء بصرها بين أبويها، قبل أن تخفض عينيها، مجيبة، في صوت أقرب إلى البكاء:

- إنه لا بد أن أذهب إلى منطقة، تبعد سبعة كيلومترات، شرق بئر كارولين.

ثم رفعت عينيها إليهما، مضيفة في حزم باكٍ:

- الآن.

وقفزت دهشة والديها..

إلى الذروة.

* * *

- أتعتقد أنهم سيفعلونها؟!

ألقى الدكتور أحمد سؤاله في اهتمام، على الدكتور محمد، الذي التفت بدوره إلى اللواء فاروق مغمغمًا:

- الأفضل أن تجيب أنت هذا السؤال، يا سيادة اللواء.

بدا وجه اللواء فاروق شاحبًا، وهو يهزُّ كتفيه، ويغوص في مقعده، مغمغمًا:

- لم نمرّ قطُّ بمثل هذا الموقف، ولست أدري أي قرار يمكن أن تتخذه القيادة السياسية الآن.

قال الدكتور محمد، في شيء من الحدة:

- المفترض أنه قرار علمي بحت.

أجابه العقيد مجدي هذه المرة:

ـ من وجهة نظرك فحسب يا دكتور محمد؛ فاهتمامك كله علمي بحت، ولكننا نتحدث هنا عن لقاء مجهول، مع ما تقول: إنه كائنات من عالم آخر، وكل نظم الأمن لن تقنع أبدًا بمثل هذا التفسير؛ لأن مهمتها الأساسية هي حماية وتأمين كل مسؤولي الدولة، ولن يمكنهم القيام بمهمتهم هذه، وهم يجهلون كل شيء عن طبيعة اللقاء.

قال الدكتور أحمد في توتر:

ـ أخبرناكم من قبل، إنهم لو أرادوا النَّيْل من كل المسؤولين في الدولة، من أحدث وكيل وزارة، وحتى رئيس الجمهورية نفسه، لَمَا عجزوا عن هذا، ومن دون ترتيب أي لقاء.

أجابه اللواء فاروق في خشونة:

ـ هذا مجرد قول مسترسل، لا دليل مادي واحد على صحته.

قال الدكتور محمد في حدة:

ـ وماذا عن الأحداث السابقة؟!

أجابه في حدة مماثلة:

ـ إنها ليست دليلًا.

ثم استدرك في سرعة وصرامة:

ـ في نظر رجال أمن الرياسة على الأقل.

هزَّ الدكتور محمد رأسه في ضيق، وهو يقول:

ـ إذن فسنضيِّع هذه الفرصة الذهبية.

غمغم العقيد مجدي، والتوتر يتقاطر من كلماته:

ـ لم يضع أي شيء بعد.

التفت إليه الجميع، فأضاف في عصبية:

ـ سيادة الوزير ما زال في اجتماعه، مع رئيس الجمهورية ومعاونيه، ولا شك عندي في أن الاجتماع يضم الآن كل قيادات الجيش، والمستشارينِ العلميين للرئيس، ومدير المخابرات، وكل من له شأن بهذا الأمر.

قال الدكتور أحمد، وهو يلقي نظرة على ساعته في توتر:

ـ ولكن الوقت يمضي في سرعة.

بدا اللواء فاروق شديد الغلظة والصرامة والتوتر، وهو يقول:

ـ لقد قمتما بدوريكما في هذا الأمر، وما يتبقى هو دورنا نحن.

ارتفع رنين ذلك الهاتف الخاص على مكتبه، في تلك اللحظة، فاختطف سماعته في سرعة، وهو يقول:

ـ أوامرك يا سيادة الوزير.

وانعقد حاجبَا الدكتور أحمد في شدة، وعدَّل الدكتور محمد منظاره الطبي فوق أنفه، في حين بدا التوتر واضحًا على وجه العقيد مجدي، عندما احتقن وجه اللواء فاروق في شدة.

لقد كان من الواضح أنه يتلقى من وزير الداخلية تعليمات شديدة الأهمية والخطورة..

للغاية.

* * *

حملت ملامح طلعت منصور، كل التوتر والقلق، وهو ينطلق بسيارة رباعية الدفع، في طريق الواحات، وقد انعقد حاجباه في شدة، في حين لاذت زوجته إلى جواره بالصمت التام، وحاولت شيماء الاسترخاء في المقعد الخلفي.

لم يكونوا قد تبادلوا كلمة واحدة، منذ وصلوا إلى مدينة أسيوط، واستقلوا السيارة، التي أعدَّها لهم فرع شركة المقاولات، التي يمتلكها الأب هناك، والتي أصرَّ هو على أن يقودها بنفسه، إلى حيث أرادت ابنته في إصرار.

لم يكن يدري سبب هذا أو سره، إلا أن بكاء شيماء وإصرارها، جعله يتخذ هذه الخطوة، على الرغم من كل ما يمكن أن تحويه من مخاطر.

وكمحاولة منه؛ لكسر الصمت والتوتر، غمغم:

ـ كنت أُفضل أن تبقي في المنزل، بدلًا من تحمُّل كل هذه المشاق.

قالت الأم في حزم متوتر:

ـ أينما تذهب شيماء سأذهب.

قال بكل توتره:

ـ ولكننا سنضطر للقيادة طوال الليل، وربما لا يكون الطريق آمنًا.

قالت في حزم أكبر، وتوتر أكثر:

ـ سنكون معًا، في كل الأحوال.

سمعت شيماء حديثهما، من دون أن تنطق بحرف واحد.

كل ما كان يشغل عقلها، في هذه اللحظة، هو تساؤلها عما يعنيه حلمها هذا.

لماذا ذلك الموقع، على بعد سبعة كيلومترات، من بئر كارولين؟!

ولماذا الخامسة صباحًا؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

ولماذا؟!

ولكن كل أسئلتها ظلَّت مجرد عاصفة في رأسها الصغير..

من دون تفسير..

ومن دون إجابة..

على الإطلاق.

* * *

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، عندما حلَّق سرب من مقاتلات القوات الجوية المصرية، في سماء منطقة واحة الفرافرة، والمناطق المحيطة بها.

كان سكان الواحة وما يجاورها، قد اعتادوا تلك الطلعات الجوية الدورية، التي تتفقد وتحمي سماء مصر طوال الوقت، إلا أنهم شعروا بدهشة حقيقية، مع ذلك التوقيت، الذي لم يألفوه من قبل قط..

في الوقت ذاته، كانت هناك وحدات من الجيش، بمُشاته، وفِرَقه الخاصة، تنتشر حول منطقة بئر كارولين، وتغلق كل الطرقات المؤدية إليه، معلنة أنها ضمن خطة وهمية؛ لمطاردة عصابة من مهربي المخدرات، اختارت المنطقة؛ لإتمام صفقة سموم جديدة.

وفي حوالي الرابعة صباحًا، تم إبلاغ قيادات الجيش، أن المنطقة نظيفة، ولم يُسفر فحصها وتفتيشها عن أية أمور مثيرة للقلق.

في نفس الوقت، كانت هناك وحدات من الرادارات المتحركة، تحيط بالمنطقة، محاولة رصد أية أجسام في سمائها.

وفي الرابعة وتسع دقائق، ظهرت تلك الهليوكوبتر..

هليوكوبتر حربية كبيرة، حملت إلى جوار طاقمها، عشرة رجال، يرتدي أربعة منهم زيًّا رسميًّا، في حين كان الستة الباقون من المدنيين، كما تشير ملابسهم.

وما إن حطَّت الهليوكوبتر على الأرض، حتى غادرها الرسميون الأربعة.

أركان حرب القوات المسلحة، ونائب قائد الدفاع الجوي، وأحد ضباط الحرس الجمهوري، واللواء فاروق، الذي بدا شديد التوتر والعصبية، وهو يدير عينيه فيما حوله، قبل أن يغمغم:

ـ أتعشَّم أن يكون لقاءً سلميًّا بالفعل.

هبط خلفه المدنيون الستة بالترتيب، حيث هبط أولًا أحد نوَّاب رئيس الجمهورية، ثم تبعه أحد وكلاء جهاز المخابرات العامة، واثنان من علماء مركز الأبحاث، وفي النهاية هبط الدكتور أحمد الذي لم يعد يرتدي منظاره الطبي، ولحق به الدكتور محمد، وهو يغمغم بكل توتره:

ـ من يصدِّق أن كل هذا بدأ بتجربة طبية علمية؛ لكشف علاج للصرع.

أجابه الدكتور أحمد، وهو يدير عينيه في كل الاستحكامات العسكرية، التي تحيط بهم:

ـ أكاد أجزم بأن الأمر لم يكن مجرد مصادفة.

غمغم الدكتور محمد بنفس التوتر:

ـ ولِمَ لا؟! قرأت أن أحد العلماء قال قديمًا: «الصدفة لا تأتي، إلا لمن يستحقها».

وافقه الدكتور أحمد بإيماءة من رأسه، مجيبًا في خفوت:

ـ «بوجارت» على الأرجح.

عاد الدكتور محمد يدير عينيه فيما حوله، ثم قال في عصبية:

- إنهم يستعدون لحرب، وليس لمجرد لقاء!

حاول الدكتور أحمد أن يبتسم، وهو يقول:

- فلنحمد الله - سبحانه وتعالى - على أنهم قنعوا بالأمر.

أشار الدكتور محمد بيده، إشارة غير ذات معنى، وهو يقول:

- كل ما أخشاه أن يفقد أحدهم أعصابه، إذا ما رأى ما يفوق قدرته على الفهم والاستيعاب، فيقدم على عمل متهوِّر، ويتحوَّل اللقاء المنتظر إلى كارثة.

أطلق الدكتور أحمد زفرة متوترة، وهو يغمغم:

- أتعشَّم ألا يحدث هذا.. ولقد أخبرني نائب الرئيس، أن الأوامر تحتم عدم القيام بأية خطوة، إلا بناءً على أمر مباشر، من أركان حرب القوات المسلحة.

هزَّ الدكتور محمد كتفيه، قائلًا في توتر:

- المهم ألا يكون هو مَن يفقد أعصابه أولًا.

كانت عقارب الساعة تقترب من الخامسة، والرادارات المتحركة تواصل رصد السماء طوال الوقت، في حين بدا التوتر على الجميع، وقال اللواء فاروق في عصبية:

- لا شيء حتى الآن.

ثم أضاف، في شيء من الحدة:

ـ الكبار كلهم آثروا السلامة، وبقَوْا في مكاتبهم، يتابعون الأمور، عبر الاتصالات اللاسلكية، وأرسلونا نحن لمواجهة الخطر.

أجابه الدكتور أحمد في خفوت:

ـ لن يكون هناك خطر بإذن الله.

الأسلوب الذي نطق به العبارة، لم ينجح في إقناعه هو نفسه، مما زاد من عصبية اللواء فاروق، وهو يقول:

ـ هل يمكنك أن تجزم؟!

لم يحاول الدكتور أحمد حتى إجابة السؤال، في حين قال الدكتور محمد، في عصبية مماثلة:

ـ أظن أنه فات أوان طرح مثل هذا السؤال.

رمقه اللواء فاروق بنظرة حادة، ثم اتجه نحو نائب قائد الدفاع الجوي، يسأله:

ـ هل من جديد؟!

هزَّ نائب قائد الدفاع الجوي رأسه، وهو يجيب في اقتضاب:

ـ ليس حتى الآن.

صمت لحظة، ثم شعر بأن جوابه لا يكفي، فاستطرد في قلق واضح:

ـ المقاتلات الجوية لم ترصد شيئًا في سماء المكان، ولا حوله، وكل وحدات الرادار المتحركة تثبت هذا أيضًا.

ألقى اللواء فاروق نظرة على ساعته، وهو يقول في توتر:

ـ إنها الخامسة إلا تسع دقائق.. لو أن ذلك اللقاء حقيقي، فالمفترض أن نرصد أي شيء.. أي شيء.

عاد نائب قائد الدفاع الجوي يهزُّ رأسه نفيًا، قبل أن يقول:

ـ إننا في المكان الصحيح، وفقًا لتلك الرسالة العجيبة، التي انزرعت بوسيلة ما، في عقول بعض مواطنينا، وتسع دقائق زمن طويل، بالنسبة حتى للمقاتلات الحديثة، التي تنطلق بثلاثة أضعاف سرعة الصوت، والمفترض أن من ننتظر وصولهم، قد أتوا من حضارة تفوق حضارتنا، ولديهم تكنولوجيا تفوق تكنولوجيتنا، ولسنا ندري كم تبلغ سرعة مركبتهم، ولا من أين سينطلقون؛ ليصلوا إلينا في اللحظة المناسبة.

انعقد حاجبًا اللواء فاروق في شدة، وهو يغمغم في عصبية:

ـ حضارة تفوقنا.. وتكنولوجيا تتفوق علينا!!

ثم أطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة، قبل أن يضيف في مرارة:

ـ وأنا الذي كنت أشكو من ارتفاع معدَّلات الجريمة العادية!

قال نائب قائد الدفاع الجوي في حزم:

ـ اهدأ يا رجل.. إننا جميعًا نواجه الموقف نفسه.. وكلنا تقريبًا نعجز عن استيعابه، أو حتى فهمه.. ولكن يبدو أن العالمين اللذين فجرَا الموقف، لهما مصداقية واحترام، لدى مؤسسة الرياسة، أو أنهما استطاعوا إقناع المسؤولين بوجهة نظرهما العجيبة، وإلا ما كان كل ما تراه من حولك.

غمغم اللواء فاروق في عصبية:

ـ إنه أشبه بالاستعداد لمواجهة عسكرية.

أومأ نائب قائد الدفاع الجوي برأسه، وهو يجيب في حزم، لم يَخلُ من رنة توتر:

ـ من الخطأ ألا نستعد لكل الاحتمالات.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الدكتور محمد يسأل الدكتور أحمد، في شيء من الحدة:

ـ أما زلت مصرًّا على عدم ارتداء منظارك الطبي؟!

أومأ الدكتور أحمد برأسه، وهو يجيب في حزم:

ـ إننا نسعى لعقد الاتصال، وليس لمنع حدوثه.

عقد حاجبيه في ضيق، وهو يشيح بوجهه عنه، قائلًا:

ـ هذا شأنك.

ثم عاد يلتفت إليه بحركة حادة، مضيفًا:

ـ أما أنا، فلن أنزعه عن عيني لحظة واحدة.

استعار الدكتور أحمد كلمته، وهو يحاول الابتسامة، مغمغمًا:

ـ هذا شأنك.

ثم أخرج غليونه من جيبه، وبدأ يحشوه بالتبغ، وهو يضيف:

ـ ما دمنا في الهواء الطلق، فأظنني أستطيع التدخين.

أشاح الدكتور محمد برأسه مرة ثانية، وهو يقول في حدة:

ـ ليس بالقرب مني.

ألقى الدكتور أحمد نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الخامسة، إلا ست دقائق، وقال وهو يشعل غليونه:

ـ هل تعتقد أنهم سيأتون في طبق طائر؟!

غمغم الدكتور محمد في عصبية:

ـ الأطباق الطائرة، تم رصدها لأول مرة، عام ١٩٤٧م، فهل تظن أنهم ما زالوا يستخدمون الوسيلة نفسها، حتى هذه اللحظة.

صمت الدكتور أحمد بضع لحظات، نفث خلالها دخان غليونه في استمتاع، قبل أن يجيب في بطء:

ـ هذا لو أنهم قد غادروا كوكبنا، منذ ذلك الحين.

عاد حاجبًا الدكتور محمد ينعقدان، والتفت ليقول له شيئًا ما، عندما انطلق فجأة ذلك الأزيز القوي، في المكان كله.

أزيز عنيف، آلَمَ آذان الجميع، قبل أن يهتف نائب قائد الدفاع الجوي، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، الذي لم يفارق يده لحظة واحدة:

ـ ماذا يحدث بالضبط؟!

أصدر جهازه شوشرة عجيبة، توحي بعدم قدرته على العمل، في حين برز أحد أفراد طاقم وحدة رادار متحركة قريبة، وهو يقول في توتر شديد:

ـ الوحدة توقفت عن العمل.

ولم يكن وحده الذي أعلن هذا.

كل وحدات الرادار المتحركة أعلنت توقفها عن العمل..

بل حتى المدرعات والدبابات..

والهواتف المحمولة..

وأجهزة اللاسلكي.

وفي عصبية شديدة، هتف أركان حرب القوات المسلحة:

ـ ماذا يحدث؟! ذلك الأزيز لم يستغرق سوى ثوانٍ فحسب.

اندفع عالِمَا مركز البحوث، يفحصان وحدات الرادار، في حين أسرع الدكتور محمد، نحو أركان حرب القوات المسلحة، وهو يقول في انفعال:

ـ إنهم هم.. لقد استخدموا حتمًا ذبذبة خاصة؛ لإيقاف عمل كل الأجهزة.

قال أركان حرب القوات المسلحة في عصبية:

- إذن فهم يسعون للقتال.

أمسك الدكتور محمد يده، وهو يهتف بانفعال زائد:

- أو إن هذا ما يحتمه وصولهم.

لم يكد يتم عبارته، حتى دوتْ فرقعة عجيبة في المكان.

واتسعت العيون كلها، في ذهول ما بعده ذهول.

فما ظهر أمامهم، عقب تلاشي تلك الفرقعة مباشرة، كان كفيلًا بتفجير ذهولهم جميعًا..

وبلا استثناء.

١٤

انتفض جسد والدة شيماء، مع صوت سرب المقاتلات، الذي عبر السماء، فوق تلك المنطقة، التي تنطلق فوقها السيارة رباعية الدفع، والتفتت إلى زوجها، تسأله في جزع:

- ما هذا؟!

كان يشعر بتوتر مماثل، إلا أنه حاول تهدئتها، وهو يغمغم:

- إنها طلعة جوية تقليدية على الأرجح.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الجواب، كفيل بتهدئتها في الظروف العادية، إلا أنه لم ينجح في هذا، وهي تراقب شروق الشمس، والسيارة ما زالت تنطلق بهم، نحو تلك البقعة التي حددتها ابنتها على الخريطة، على بُعد سبعة كيلومترات، من بئر كارولين.

وفي المقعد الخلفي، بدت شيماء وكأنها قد استغرقت في نوم عميق هادئ، فتثاءبت الأم، على الرغم منها، وهي تغمغم في توتر:

ـ من العجيب أن دوي الطائرات لم يوقظها.

غمغم بدوره:

ـ فلنحمد الله عز وجل على هذا.

شملهما الصمت لحظات أخرى، ثم عادت الأم تسأل:

ـ هل تظن أنه من الممكن أن نجني أية فائدة، من هذه الرحلة الشاقة؟

صمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يجيب في حزم:

ـ شيماء تؤمن بهذا، وهذا يكفيني.

كانا يظنان أن ابنتهما الوحيدة غارقة في نوم عميق، إلا أنها غمغمت، من دون أن تفتح عينيها:

ـ شكرًا يا أبي.

انتفضت الأم، برد فعل طبيعي، قبل أن تسأل في قلق:

ـ ألست نائمة؟!

أجابتها شيماء في هدوء، وأيضًا من دون أن تفتح عينيها:

ـ أيقظني دوي الطائرات.

غمغمت أمها في توتر، وهي تنقل كلمات زوجها:

ـ إنها طلعة جوية تقليدية، و...

قاطعتها شيماء في هدوء:

ـ ليست كذلك.

ضغط والدها فرامل السيارة، في حركة عصبية، فتوقفت السيارة على نحو حاد، جعل شيماء تندفع إلى الأمام، بفعل القصور الذاتي، وكادت ترتطم بالمقاعد الأمامية، لولا أن استندت إليها بيدها، وهي تقول:

ـ احترس يا أبي.

التفت والدها ووالدتها إليها في حركة واحدة، وهتف بها الأب في توتر:

ـ لماذا تقولين هذا؟!

أجابت وهي تعتدل:

ـ لقد أفقدتني توازني.

هتف:

ـ لست أعني دعوتك لي بالاحتراس.

وأضافت الأم بكل توترها:

ـ لماذا تجزمين بأنها ليست طلعة جوية تقليدية؟!

نقلت شيماء بصرها بين والدها ووالدتها، في هدوء ضاعف من دهشتهما، قبل أن تجيب:

ـ إنهم هنا من أجل اللقاء.

اتسعت عينا والدتها في دهشة كبيرة، في حين تساءل الوالد، وقد انضمت عصبيته إلى توتره:

ـ أي لقاء؟!

لاحظ الاثنان أن شيماء لا تنظر إليهما، ولكنها تتطلع إلى زجاج السيارة الأمامي في انتباه واهتمام، فالتفتا إلى الأمام في آنٍ واحد، وشهقت الأم في فزع، في حين انعقد حاجبًا الأب في شدة، وأمسك مِقْود سيارته بكل قوته.

فما رأياه أمامهما، يتجه نحوهما في حزم، كان آخر ما يتخيلَان، أو يمكن أن يتخيلَا رؤيته، في هذا الطريق..

على الإطلاق.

* * *

توتُّر عنيف، ذلك الذي ساد مكتب رئيس الجمهورية، عندما انقطعت الاتصالات فجأة، بذلك الفريق الذي يستعد للقاء المزمَع، شرق بئر كارولين.

كان مكتب الرئيس يزدحم بالقادة، على عكس المعتاد.

وزير الدفاع ورئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة..

مدير المخابرات العامة..

مدير المخابرات الحربية..

المستشارون العلميون للرئيس..

وعدد محدود من كبار معاونيه..

ولقد ألقى الرئيس سؤاله الأول لوزير الدفاع، في قلق وتوتر واضحين:

ـ بِمَ تفسر هذا؟!

كان وزير الدفاع أكثر قلقًا وتوترًا، إلا أنه، وبحكم شخصية وطبيعة عمله، أخفى هذا في أعماقه، وهو يجيب في حزم:

ـ المقاتلات لم ترصد شيئًا، حتى اللحظة الأخيرة.. لا أجسام فضائية أو أرضية، ولا ظواهر غير طبيعية.. وذلك الانقطاع حدث فجأة، قبل الخامسة بدقيقة واحدة.. ولم ترصد المقاتلات أية انفجارات، أو شيئًا ينمُّ عن وقوع أحداث عنيفة، في موقع اللقاء المزمَع.

قال مدير المخابرات في قلق:

ـ لو أن المقاتلات ما زالت ترصد ما يحدث، فلماذا لا تنقل إلينا صورة الموقع «صفر» الآن؟!

كان وزير الدفاع يهمُّ بالجواب، عندما اندفع أحد المستشارين العلميين للرئيس يقول:

ـ ربما لا يمكنهم الاقتراب من الموقع.

التفت إليه الكل في توتر، فازدرد لعابه في عصبية، قبل أن يتابع:

ـ منذ أبلغنا سيادة الرئيس بالأمر، عكفنا على دراسة كل ما تم تسجيله، حول ظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، التي لم نواجهها مباشرة من قبل.

أعجزه جفاف حلقه، عن متابعة الحديث، فانبرى المستشار العلمي الثاني يكمل:

ـ الدراسات كلها أشارت، إلى أن تلك الأجسام الطائرة مجهولة الهوية، تعتمد في حركاتها الفريدة، على مجالات كهرومغناطيسية قوية تحيط بها، وفي كل مرة يتم رصدها، تتأثر كل الاتصالات، وحتى المحركات التي تعتمد على الطاقة الكهربية، بشكل كلي أو جزئي، على نحو ملحوظ، وتتوقف كلها، عند مرور تلك الأجسام بها.

استعاد المستشار العلمي الأول قدرته على الحديث، فقال مكملًا شرح زميله:

ـ وفي تصورنا أن هذا ما حدث في الموقع «صفر».

قال وزير الدفاع، في صرامة واضحة:

ـ أتعني أن جسمًا من تلك، قد ظهر في الموقع «صفر»، من دون أن ترصده مقاتلاتنا؟!

أجابه المستشار العلمي الأول، في مزيج من الحزم والتوتر:

ـ بالضبط.

تبادل الجميع نظرة شديدة التوتر، قبل أن يتساءل مدير المخابرات الحربية في اهتمام:

ـ أهذا ما يمنع مقاتلاتنا من الاقتراب؟!

بدا المستشار العلمي الثاني شديد الحماس، وهو يجيب:

ـ لسنا ندري مدى اتساع دائرة تأثير المجال الكهرومغناطيسي؛

لأننا نجهل مدى قوته وشدته بالضبط، ولكنه، إن كان قويًا بما يكفي، فما إن تقترب منه المقاتلات، حتى تصاب أجهزتها كلها بالخلل، مما يجعلها مضطرة لأن تدور حول المجال، من دون الدخول فيه.

انعقد حاجبَا مدير المخابرات العامة، وهو يبحث عن وسيلة لتجاوز هذا، في حين قال الرئيس في غضب:

- إذن فأخطر لقاء في تاريخنا سيتم، ونحن نجلس هنا كالعميان، لا ندري شيئًا مما يحدث فيه!

أومأ المستشار العلمي الأول برأسه إيجابًا في قلق، فأدار مدير المخابرات العامة رأسه إليه، متسائلًا في حزم:

- وماذا عن البشر؟! هل يؤثر فيهم ذلك المجال الكهرومغناطيسي؟!

أجابه المستشار العلمي الأول على الفور:

- ليس كما يؤثر على الاتصالات والأجهزة الإلكترونية والآلات؛ فالجسد البشري يشعر بأي مجال بهذه القوة، كما لو أنه هناك قوة ما، تدغدغ كل خلاياه، وربما يشعر باضطراب غير مبرر، ولكنه سيظل قادرًا على التعامل والتفكير[1].

اعتدل مدير المخابرات العامة، وهو يقول في حزم:

- في هذه الحالة، توجد وسيلة لمعرفة ما يحدث هناك.

---

(١) حقيقة علمية.

قبل أن يخبرهم بما لديه، ارتفع رنين الهاتف الخاص، لمدير المخابرات الحربية، فالتقطه في سرعة، وهو يسأل في توتر:

ـ ماذا يحدث عندكم؟!

تطلع إليه الجميع في لهفة، متسائلين كيف أمكنه تلقي مثل هذا الاتصال، وبينما تتعلق به كل العيون، انعقد حاجباه بمنتهى الشدة، على نحو يوحي بأنه يتلقى خبرًا شديد الأهمية..

وشديد الخطورة أيضًا..

شديد بحق.

* * *

ـ لا أظننا قد خالفنا القانون، إلى هذا الحد!!

نطق طلعت منصور، والد شيماء، العبارة في عصبية واضحة، وهو ما زال يتطلع إلى الدبابة الضخمة، التي اعترضت طريق سيارته، فمال عليه الضابط الذي خرج منها، وهو يرتدي زي ميدان كامل، وقال في لهجة مهذبة، لم تخل من الصرامة العسكرية المعتادة:

ـ ليس في الأمر أية مخالفات قانونية يا سيِّدي، ولكن هذه المنطقة مغلقة مؤقتًا، لأسباب تتعلق بالأمن القومي، وهذه أبعد نقطة يمكنك الوصول إليها.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف، في صرامة أكثر:

ـ ثم إن المسار الذي تتخذه، لن يوصلك إلى أية منطقة مأهولة بالسكان.

ازدرد طلعت لعابه، وألقى نظرة على زوجته، التي انكمشت مذعورة في مقعدها، قبل أن يقول:

ـ وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟!

أجابه الضابط بنفس الصرامة:

ـ أخشى أنه يتحتم عليك أن تعود أدراجك.

شهقت الأم في ذعر، وقال طلعت في حدة:

ـ هل تعلم أنني قد قُدْتُ سيارتي طوال الليل، للحاق بموعد مهم، على بُعد كيلومترات قليلة من هنا؟!

بدا الضابط شديد الصرامة والقسوة، وهو يجيب:

ـ ستعود أدراجك يا سيِّدي، أو أضطر لاحتجاز سيارتك وتفتيشها.

قال طلعت، في حدة أكثر:

ـ يمكنك تفتيشها كما تشاء.. إننا لا نقوم بأي عمل غير مشروع.

قال الضابط في حدة مماثلة، تشف عن فروغ الصبر:

ـ اتجاهك نحو منطقة غير مأهولة، يحيط رحلتك كلها بالشبهات.

همَّ طلعت بقول شيء ما، وقد احتقن وجهه غضبًا، ولكن شيماء سبقته، وهي تعتدل في مجلسها، قائلة في هدوء:

ـ ولكنهم ينتظرونني هناك.

أدار الضابط عينيه إليها في استنكار، متسائلًا بكل الصرامة:

ـ من هؤلاء؟

فاجأته في هدوء:

ـ رؤساؤك.

انكمشت الأم في مقعدها، في ذعر أكثر، واتسعت عينا طلعت بكل الدهشة، في حين انعقد حاجبًا الضابط، من دون أن يقول شيئًا، فتابعت هي بنفس الهدوء:

ـ إنهم ينتظرونني، على بُعد سبعة كيلومترات، شرق بئر كارولين، حيث سيتم اللقاء.

ردد الضابط في دهشة حذرة متوترة:

ـ اللقاء؟!

أومأت برأسها الصغير إيجابًا، وهي تقول في ثقة وهدوء:

ـ نعم.. اللقاء الذي من أجله أغلقتم المنطقة كلها.. والذي من أجله أيضًا، تدور أسراب المقاتلات في السماء طوال الوقت.

كادت الأم تفقد وعيها، خوفًا من رد فعل الضابط، وأرتج على طلعت، فلم يستطع النطق بحرف واحد، في حين اعتدل الضابط، والتوتر يملأ ملامحه، والتقط جهاز الاتصال اللاسلكي من حزامه، فقالت شيماء بنفس الهدوء:

ـ أعتقد أنه لن يمكنك إجراء أية اتصالات معهم.

قال الضابط في خشونة، نبعت من توتره الشديد:

ـ لست أحاول الاتصال بهم.

ابتعد عن السيارة بمسافة كافية، وهو يتم اتصاله بجهة ما، في حين استدار الأب والأم إلى ابنتهما في دهشة بلغت ذروتها، من دون أن ينطق أحدهما حرفًا واحدًا، وإن دار السؤال نفسه في رأسيهما، في اللحظة ذاتها.

كيف يمكن أن تعلم شيماء كل هذا؟!

وكيف تتحدث عنه بكل هذه الثقة؟!

كيف؟!

* * *

على الرغم من كل العيون المتطلِّعة إليه، في لهفة وتوتر، لاذ مدير المخابرات الحربية بالصمت، لِمَا يقرب من نصف الدقيقة، بعد أن أنهى ذلك الاتصال، الذي وصله من ضابط المدرعات، الذي يحتجز سيارة طلعت منصور، حتى سأله الرئيس، في شيء من الحدة:

ـ ماذا هناك؟!

التفت إليه مدير المخابرات الحربية في سرعة، وتنحنح في قوة، وكأنما ينفض عنه دهشته، قبل أن يقول:

ـ رجلنا المسؤول عن تأمين المنطقة «صفر»، أبلغني أنه هناك فتاة شابة، تعرف تفاصيل اللقاء، وتصرُّ على أن مسؤولينا ينتظرونها هناك.

بدا قوله أشبه بصاعقة، انقضت على رؤوس الجميع، وأحاطتهم بحالة من صمت مطبق، يمتزج بدهشة وتوتر كبيرين، قبل أن يقول وزير الدفاع:

ـ ولكننا أحطنا الأمر بكل السرية!!

بدا الرئيس أكثرهم تماسكًا، وهو يسأل في حزم:

ـ مَن تلك الفتاة؟!

أجابه مدير المخابرات الحربية في حذر، لم يَدْرِ هو نفسه سببًا له:

ـ اسمها شيماء.. شيماء طلعت منصور.. والدها هو ذلك المقاول الشهير، الذي...

قاطعه المستشار العلمي الأول للرئيس، قائلًا في انفعال:

ـ إنها نقطة البداية.

أطلَّ التساؤل من عيون الجميع، فاندفع المستشار العلمي الثاني يكمل:

ـ وفقًا لرواية الدكتور أحمد عامر، والدكتور محمد علوي، فالأمر كله بدأ، عندما استأصل الأول بؤرة صرعية، من تلك الفتاة.

غمغم الرئيس، وهو يعقد حاجبيه في تفكير:

ـ نعم.. إنني أذكر هذا.

قال المستشار العلمي الأول، في شيء من التوتر:

ـ ولكن المفترض أن انتزاع ذلك الجسم تحت الميكروسكوبي

من مخها، قد أنهى أي اتصال مباشر بعقلها، وعلى الرغم من هذا، فها هي ذي تتجه إلى المنطقة «صفر»، وكأنها تعرف جيدًا كل ما بذلنا الجهد لإخفائه.

قال مدير المخابرات العامة في حزم:

ـ هذا الأمر يثير في نفسي كثيرًا من الشكوك؛ ففي عملنا لا نؤمن بالمصادفات، التي تبلغ هذا الحد.

أشار إليه مدير المخابرات الحربية، مضيفًا:

ـ هذا صحيح.. والتفسير الوحيد المنطقي، هو أن أحد العالمين قد أبلغها بتلك التفاصيل.

سأله وزير الدفاع في صرامة:

ـ وكيف هذا؟! لقد صادرنا هاتفيهما المحمولين، من قبل حتى أن تبدأ تلك الإجراءات؛ لإعداد اللقاء في المنطقة «صفر»!!

هزَّ مدير المخابرات الحربية كتفيه، مجيبًا:

ـ إنهما عالمان، وأحدهما خبير بالموجات الكهرومغناطيسية، وربما لديهما وسيلة، لم نكشفها بعد.

اعتدل الرئيس، وهو يقول في حزم:

ـ هنا يبقى السؤال الأساسي: «لماذا؟! ما الدافع لديهما؛ ليخبرا فتاة شابة بأمر كهذا؟!».

ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف:

ـ ما لم يكن لوجودها أهمية بالغة، في هذا اللقاء.

تساءل وزير الدفاع:

ـ وأية أهمية لفتاة شابة، في موقف كهذا؟!

أجابه الرئيس في حزم:

ـ وما الذي نعلمه نحن عن الأمر كله؟!

سؤاله أعاد حالة الصمت والقلق إلى المكان، حتى قطعه مدير المخابرات الحربية، وهو يقول:

ـ لقد تم تفتيش السيارة، التي أتت بها، مع والدها ووالدتها إلى المكان، ولم يتم العثور فيها على ما يثير الشبهات.

سأله وزير الدفاع:

ـ وماذا عن والدها طلعت منصور؟!

أجابه مدير المخابرات العامة في حسم:

ـ صفحته نقية، كما يؤكد ملفه، حتى إننا قد أسندنا إليه بعض الأعمال المهمة، من خلال شركة مقاولات وادي النيل، التي يمتلكها الجهاز.

تراجع الرئيس في مقعده، وغمغم وكأنه يُحدث نفسه:

ـ والدها لا غبار عليه، والسيارة نظيفة، وشيماء كانت نقطة البداية،

في كل ما حدث.. وهي تعلم كل شيء.. تعلمه بوسيلة ما، لا نملك معرفة ماهيتها!!

تمتم مدير المخابرات الحربية:

ـ أرى أن من المخاطرة أن نسمح لها بالوصول إلى المنطقة «صفر»؛ وخصوصًا أننا نجهل ماذا يحدث هناك.

اندفع المستشار العلمي الأول للرئيس، يقول:

ـ معذرة يا سيادة اللواء، ولكنني أختلف معك في هذا.

التفت إليه مدير المخابرات الحربية في استنكار، ولكنه تابع في انفعال:

ـ الأمر منذ البداية يرتبط بالسيطرة على العقول، عبر تكنولوجيا شديدة التطور، نعجز حتى عن فهمها.. وربما استأصل الدكتور أحمد بالفعل، ذلك الجسم تحت الميكروسكوبي من خلايا مخها، ولكننا نجهل تمامًا، ما إذا كان هناك آخر، يغوص في منطقة أخرى من تلافيف مخها، وما زال يستقبل رسائل الغرباء.

همَّ البعض بقول شيء ما، ولكن الرئيس سبقهم، وهو يسأله:

ـ وماذا تقترح؟!

أشار المستشار العلمي الأول بيده، وهو يجيب بنفس الانفعال:

ـ ما دامت هي، من دون كل الآخرين، الذين تمت السيطرة على عقولهم، قد اتجهت مباشرة، إلى موقع لقاء، حافظنا بكل السبل

على سريته، فهذا يعني أنها قد تلقت الدعوة من الغرباء مباشرة، ولسبب نجهله، كما نجهل ما يدور في المنطقة «صفر» الآن.

قال مدير المخابرات العامة في حزم:

ـ سنعلمه بعد قليل.. لقد أرسلت أحد رجالنا، إلى قلب المنطقة «صفر»، وسيقود عربة سريعة، حتى حدود المجال الكهرومغناطيسي، الذي يفسد كل المحركات، وبعدها سيكمل المسافة على قدميه، حتى المنطقة «صفر»، ويرصد كل ما يحدث هناك، ثم يعود أدراجه؛ ليبلغنا بما يحدث.

غمغم مدير المخابرات الحربية في ضيق، مبعثه أن الفكرة لم تخطر بباله، على الرغم من بساطتها:

ـ هذا سيستغرق كثيرًا من الوقت.

أجابه مدير المخابرات العامة، في شيء من الزهو:

ـ إنه أفضل عدَّاء، في فريق العمليات الخاصة، التابع لإدارة الخدمة السرية في الجهاز.

نقل الرئيس بصره بين الرجلين، ثم اتجه به نحو مستشاره العلمي الأول، يسأله:

ـ هل تقترح إذن أن نسمح لها ولمن معها، بالوصول إلى المنطقة «صفر»؟

أجاب المستشار في سرعة:

ـ أخشى أن يفسد اللقاء كله، إن لم تصل يا سيادة الرئيس.

قال وزير الدفاع في قلق:

ـ إنها مخاطرة كبيرة.

التقط الرئيس نفَسًا عميقًا، وغمغم:

ـ الأمر كله مخاطرة كبيرة.

ثم مال على مكتبه، وقال لمدير المخابرات الحربية في حزم:

ـ فليرافقها أحد ضباطك مع والديها، إلى المنطقة «صفر».. فورًا.

لم يحاول أحدهم الاعتراض على أمر الرئيس أو مناقشته، ولكن وزير الدفاع غمغم في توتر:

ـ المشكلة أننا لا نعلم ماذا يحدث هناك.

وكان هذا هو التساؤل الفعلي، الذي يدور في رؤوس الجميع، في تلك اللحظة.

ماذا يحدث هناك؟

في المنطقة «صفر»؟!

ماذا؟!

١٥

فجأة، ظهر ذلك الجسم، في نقطة اللقاء..

عقب تلك الفرقعة العنيفة، التي كادت تصمُّ آذان الجميع، ظَهَر..

الكل كان يتوقع هبوطه من السماء.

وبعضهم بالَغ في توقعاته، فتصوَّره يبرز من وسط الرمال.

ولكن ما حدث كان يفوق كل تصوراتهم.

لقد نبتَ من الفراغ.

نقطة صغيرة، تألقت لجزء من الثانية، على ارتفاع عشرة أمتار من الرمال، ثم ظهر ذلك الجسم في موضعها، من دون سابق إنذار.

ولم يكن يشبه حتى أي شيء تصوروه.

لقد كان أشبه بفقاعة صابون هائلة، انعكست عليها الصور والأضواء، وبدت داخلها في وضوح قاعة كبيرة، تحوي أجهزة لم يروا مثلها من قبل!!

وبينما تسمَّر الجميع في ذهول، راحت تلك الفقاعة تهبط في هدوء..

وتهبط..

وتهبط..

حتى استقرت على الرمال.

ومع استقرارها، تشكَّل قاعها في نعومة، كما لو كانت بالفعل فقاعة صابون.

وبعيون متسعة، يطلُّ منها مزيج من الذهول والخوف والتوتر، حدق الجميع في كائنينِ، بدوا واضحينِ داخل الفقاعة، كلٌّ منهما يشبه البشر في تكوينه، إلا أنهما شديدَا الطول والنحافة والشحوب، وكلٌّ منهما يرتدي ما يشبه المعطف الطويل، الذي ينسدل بنحولة جسديهما، حتى يكاد يلامس أقدامهما.

ولدقيقة أو يزيد، عقب استقرار الفقاعة المرنة على الأرض، ساد المكانَ كله سكون رهيب مهيب، كما لو أنه قد خلَا من الحياة تمامًا، والعيون كلها ترقب الفقاعة في حذَر قلِق.

وبحركة غريزية، رفع الجنود أسلحتهم، يُصوِّبونها نحو الفقاعة، فهتف الدكتور أحمد، يشق حالة السكون الرهيبة:

ـ إياكم أن يطلق أحدكم النار.

انعقد حاجبَا أركان حرب القوات المسلحة، وهو يغمغم في صرامة متوترة:

ـ لن يطيعك أحدهم.

ثم شدَّ قامته، محاولًا استرداد صلابته، وهو يضيف:

ـ أنت مدني.

التفت إليه الدكتور أحمد في استنكار، إلا أنه آثر السلامة، ولاذ بالصمت، في حين غمغم الدكتور محمد في عصبية:

ـ لا أظن أحدهم يستطيع.

عقب قوله هذا، بدَا للجميع فجأة أن الفقاعة قد تمددت..

ثم دوتْ فرقعة أخرى.

ومع تلك الفرقعة الثانية، فوجئ الرجال العشرة، الذين أحضرتهم الهليوكوبتر، وفوجئت القوات المحيطة بهم، بأن الفقاعة قد اتسعت على نحو مبالغ مفاجئ، وصارت تحيط بمساحة أكبر من المكان، تضم داخلها الرجال العشرة.

وهنا، وكَرَدٍّ فعلٍ عسكري غريزي، صرخ قائد القوات، التي تحيط بالمكان:

ـ أطلِقوا النار.

وكَرَدٍّ فعلٍ عسكري غريزي أيضًا، ضغط كل الجنود أزندة أسلحتهم، و...

ولم تنطلق رصاصة واحدة.

كل الأسلحة توقفت عن العمل، بوسيلة ما، تخالف كل التكنولوجيا المعروفة في عالمنا..

حتى تلك اللحظة على الأقل.

أما الرجال العشرة، فقد تسمَّروا في مكانهم، وهتف اللواء فاروق في عصبية:

ـ إنهم يختطفوننا.

فوجئ بصوت هادئ قوي، بدا وكأنه ينطلق من داخل رأسه، قائلًا:

ـ ليس اختطافًا.. مهمتنا سلمية تمامًا.

كان من الواضح أن ذلك الصوت قد انطلق في رؤوس الجميع، فيما عدا الدكتور محمد، والذي بدا عصبيًّا، عندما قال أركان حرب القوات المسلحة في حدة:

ـ لماذا أحطتمونا بهذا الـ.. شيء إذن؟!

أتاه ذلك الصوت مرة أخرى عبر عقله، يقول:

ـ لا ينبغي أن يستمع الآخرون لما سنقول.

غمغم الدكتور أحمد:

ـ اجتماع مغلق إذن؟!

هتف الدكتور محمد في عصبية:

ـ مع من تتحدثون؟!

أشار الدكتور أحمد، إلى المنظار الطبي، الذي يرتديه الدكتور محمد، وهو يقول:

ـ انزع هذا، وستشاركنا الحديث.

تردد الدكتور محمد لحظات، قبل أن يرفع منظاره عن عينيه، ويطويه لِيدسَّه في جيب سترته، ولم يكد يفعل، حتى سمع ذلك الصوت المنبعث من عقله، يقول:

ـ من الضروري ألا ينتشر الفزع في الأرض.

بدا نائب رئيس الجمهورية شديد التوتر، وهو يقول:

ـ أي فزع؟! ولماذا لا تتحدثون إلينا على نحو مباشر.

أتاه الجواب في سرعة عبر عقله:

ـ ليست لدينا القدرة على هذا.

تساءل الدكتور أحمد في لهجة تحمل من الفضول العلمي ولهفته، بأكثر مما تحمل من الخوف:

ـ كيف تحدَّث إلينا أحدكما إذن، في حجرة الميكروسكوب الإلكتروني.

صدمه الجواب:

ـ لم نفعل.. هذا ما تصوَّرتماه.

هتف الدكتور محمد:

ـ ولكننا رأينا...

بتر عبارته، عندما اندفع نائب الرئيس، يسأل في توتر:

ـ من أنتما؟! ومن أين أتيتما؟!

لم يُجب ذلك الصوت العقلي سؤاله، وإنما قال:

ـ نحن هنا لإنقاذ مستقبلكم.

تساءل أركان حرب القوات المسلحة في صرامة:

ـ ولماذا يهمُّكم مستقبلنا، حتى تبذلوا من أجله كل هذا؟!

لم يأته أي جواب لسؤاله، وإنما انبعث ذلك الصوت العميق، عبر عقولهم جميعًا، يقول:

ـ هذا عالمكم كما تعرفونه الآن.

مع القول، ظهرت وسط القاعة صورة هولوجرامية كبيرة، لمشاهد من أماكن عديدة، من مصر وعدة بقاع في العالم، وكأنها فيلم تسجيلي، يُعرض وسط هواء القاعة، فقال وكيل المخابرات العامة في حدة:

ـ هل التقيتم بنا؛ لتعرضوا علينا جمال عالمنا؟!

مرة أخرى، لم يكن جواب للسؤال، وإنما عبارة مقتضبة، استقبلتها كل العقول:

ـ وهذا ما سيكون عليه، في منتصف القرن الحادي والعشرين.

تحولت الصورة الهولوجرامية فجأة، إلى فيلم تسجيلي مختلف..

ومشاهد مخيفة..

رهيبة..

مفزعة.

كل تلك الأماكن الجميلة، تحولت إلى أطلال، وخراب، وحرائق..

حروب، وانفجارات، وقتلى ومصابون بالملايين.

صور خفقت لها قلوب الجميع في ارتياع، وهتف لها الدكتور محمد في فزع:

ـ مستحيل! هذا مستحيل!

أتاه ذلك الصوت العقلي، كما أتى الجميع، قائلًا:

ـ ما ترونه ليس خداعًا تصويريًا.. إنه لحقيقة.. كما ستكون.

اختفت الصور الهولوجرامية من القاعة، تاركة الرجال العشرة في حالة شديدة العصبية والتوتر، وهتف نائب قائد الدفاع الجوي بكل انفعاله:

ـ أهذا ما ستفعلونه بعالمنا؟!

أتاه الصوت بإجابة مفزعة:

ـ بل ما ستفعلون أنتم به.

ران صمت رهيب على المكان، عقب ذلك الاتصال العقلي الأخير، حتى قطعه الدكتور أحمد، قائلًا في توتر:

ـ هل تشيران إلى حرب عالمية ثالثة مثلًا؟!

جاء الجواب ليفزعه أكثر:

ـ بل إلى ما هو أشد هولًا.

هتف الدكتور محمد:

ـ ومن سيمكنه أن يفعل هذا بالعالم؟!

بدا الجواب هذه المرة مقتضبًا للغاية:

ـ المأسورون.

لم يكن الجواب مقتضبًا فحسب.

لقد كان أيضًا شديد الغموض..

وإلى أقصى حد.

ـ ماذا تعنون بالمأسورين؟!

ألقى نائب الرئيس السؤال في انفعال، فران على عقول الجميع صمت مطبق، استغرق لحظات قليلة، قبل أن يأتيها الجواب:

ـ الذين يحملون في عقولهم ذرة الأسر.

تبادل الجميع نظرة متوترة، قبل أن يندفع أحد عالمي مركز الأبحاث، يقول في عصبية:

ـ لست أظننا قد عقدنا هذا الاجتماع العجيب، لكي نغوص في بحر من الغموض والألغاز! أليس من الأجدى أن تكون الأمور

صريحة واضحة؟! نريد أن نفهم لماذا طلبتم عقد هذا اللقاء، بعد أن زرعتم تلك الأشياء تحت المجهرية، في عقول البعض؟!

بدا ذلك الصوت العقلي أكثر عمقًا، وهو يقول:

ـ هناك ما يربو عن ملياري بشري، تحوي عقولهم ذرات الأسر، التي تسيطر عليهم، وتدفعهم إلى القيام بما يأمرهم به محركوهم.

قال نائب الرئيس في حدة:

ـ تقصدون نفسيكما ومن وراءكما بمحركيهم.. أليس كذلك؟!

مضت لحظة صمت عقلي أخرى، قبل أن يأتي الجواب في عمق:

ـ هذا ما ينبغي توضيحه.

ومرت لحظة أخرى من الصمت العقلي، قبل أن يستطرد ذلك الصوت العميق، في عقولهم جميعًا:

ـ لسنا نحن من زرع ذرَّات الأسر.

وكان هذا الجواب الأخير أشبه بصدمة..

صدمة بالغة العنف..

للغاية..

* * *

ـ لقد احتجزوهم.

نطقها مدير المخابرات العامة، وهو يخفض هاتفه المحمول عن أذنه، والتوتر يكسو صوته وملامحه، فهتف به وزير الدفاع في غضب:

ـ ماذا تعني بأنهم قد احتجزوهم؟!

أشار مدير المخابرات العامة بيده، وهو يجيب:

ـ رجلنا لم يستطع الاقتراب من النقطة «صفر»، إلا أنه استخدم منظارًا مقرَّبًا قويًّا؛ ليتابع ما يحدث هناك.. وما يصفه شيئًا يفوق العقل، ولكنه رآه بأم عينه.

صاح الرئيس في انفعال:

ـ لا داعي لهذه المقدمات يا رجل.. قل ما لديك على الفور.

عاد مدير المخابرات يشير بيديه، وهو يجيب، باذلًا قصارى جهده؛ للسيطرة على انفعاله:

ـ لقد ظهرت فقاعة عجيبة، في النقطة «صفر»، ثم تمددت؛ لتبتلع الرجال العشرة، الذين ذهبوا إلى اللقاء.

هتف وزير الدفاع محتدًّا:

ـ ولماذا لم يطلق جنودنا النار عليها؟!

أطلق مدير المخابرات العامة زفرة، قبل أن يجيب:

ـ لقد حاولوا، ولكن أسلحتهم لم تعمل.

تراجع وزير الدفاع بحركة عنيفة، كما لو أن صاعقة قد أصابته، وهو يردد ذاهلًا:

ـ لم تعمل؟!

غمغم المستشار العلمي الأول للرئيس:

ـ كنت أتوقَّع هذا.

هتف به مدير المخابرات الحربية في حدة:

ـ أكنت تتوقعه؟!

انتفض الرجل، وهو يقول في سرعة:

ـ لم أتوقع ما سيحدث بالضبط، ولكنني وزميلي توقعنا أن تكون لديهم تكنولوجيا متقدمة، تفوق تكنولوجيتنا بعقود.

بدا الرئيس غاضبًا، وهو يقول:

ـ لسنا هنا ليلقي كلٌّ مِنا غضبه على الآخرين.. الموقف كله لا يحتمل هذا.. المهم الآن أن نعرف ماذا فعلوا برجالنا.

أجابه مدير المخابرات العامة في سرعة:

ـ لا أحد يعلم يا سيادة الرئيس.. تلك الفقاعة كانت ذات جدران شفافة، أو نصف شفافة، عندما هبطت في النقطة «صفر»، ولكن ما إن احتوت رجالنا، حتى صارت وكأنها مصنوعة من زجاج عاكس، يمنع مَن خارجها، مِن رؤية ما يحدث داخلها.

قال وزير الدفاع في صرامة عصبية:

ـ لا بد أن تأمر بهجوم شامل، يا سيادة الرئيس.

ـ إياك أن تفعل.

هتف بها المستشار العلمي الثاني للرئيس، وما إن فعل، حتى ارتبك في شدة؛ لأنه اندفع في القول، بما لا يناسب حضرة رئيس الجمهورية، فتراجع منكمشًا، وهو يغمغم في توتر:

ـ كنت أعني أن...

لم يستطع إتمام عبارته، فبادر المستشار العلمي الأول بالقول:

ـ زميلي يقصد، أنه لو كان أولئك يمتلكون تكنولوجيا تفوق ما لدينا بعقود، كما يبدو واضحًا، فاللجوء إلى القوة لن يكون مربحًا.. لنا.

ساد الصمت في حجرة رئيس الجمهورية لحظات، قبل أن يقول هذا الأخير في حزم:

ـ هذا يبدو لي منطقيًّا.

قال وزير الدفاع معترضًا:

ـ وهل سنتخلَّى عن رجالنا، يا سيادة الرئيس؟!

أجابه الرئيس، في حزم أكثر:

ـ لقد مضينا قُدمًا بالفعل، في هذا الأمر، الذي لم يواجهه بشري من قبل، وما دمنا نجهل معطياته، وجازفنا بالفعل في مواجهته، فليس أمامنا الآن سوى أن ننتظر، ونرى ما ستُسفر عنه الأحداث.

كان قوله هذا يحسم الأمر، إلى حد كبير، إلا أنه لم يُرضِ معظم من في الحجرة..

على الإطلاق.

* * *

بدا ضابط الجيش، المسؤول عن تأمين المنطقة «صفر»، شديدَ التوتر، وهو يحاول عبثًا تشغيل مركبته، قائلًا:

ـ كل الأجهزة توقفت عن العمل لسبب ما.

غمغمت شيماء في هدوء عجيب:

ـ هذا لأننا صرنا داخل نطاق الحجب الكهرومغناطيسي.

التفت إليها الكل في دهشة بالغة، وغمغمت أمها في توتر:

ـ كيف علمت هذا؟!

وهتف بها الضابط، في توتر أكثر:

ـ بل ما الذي يعنيه.

أشارت بيدها الصغيرة، مجيبة بنفس الهدوء:

ـ كل الآليات في هذا العصر، تعتمد على التكنولوجيا، على نحو أو آخر، وكل التكنولوجيا تعتمد على الدوائر الرقمية، واللوحات الإلكترونية، وكلها تتأثر بالموجات الكهرومغناطيسية القوية، و...

قبل أن تكمل حديثها، هتف بها والدها:

ـ شيماء.. من أين أتيت بكل هذا؟! إنه يفوق عمرك ودراستك!

تطلعت إليه شيماء في صمت، في حين سألها الضابط، في مزيج من الحدة والصرامة:

ـ ومن أين أتت تلك الموجات الكهرومغناطيسية القوية؟!

لم تبدُ عبارتها التالية مناسبة للسؤال، وهي ترفع رأسها قليلًا، وكأنها تستنشق الهواء النقي، وتغلق عينيها، مغمغمة:

ـ ألا تشعرون بها.. إنها تحيط بنا من كل جانب.

بدت دهشة عارمة على وجهي والديها، في حين تساءل الضابط في عصبية:

ـ وما زلت أسألك: «من أين أتت؟!».

خفضت شيماء رأسها، وتطلعت إليه مباشرة، وهي تجيب:

ـ منهم.. إنهم يحمون نقطة اللقاء.

حدق الضابط في وجهها، في استنكار عصبي غامض، وأُرتج على والدتها، فلم تنبس ببِنت شفه، واكتفت بالتحديق فيها ذاهلة، في حين نجح طلعت في صعوبة، في أن يتساءل مغمغمًا:

ـ مَن هم؟! وأي لقاء؟!

أشارت بيدها إلى الأمام، مجيبة، وكأنها تحدث نفسها:

ـ إنهم ينتظرونني.. على بُعد أقل من كيلومترين.. لن يكتمل اللقاء، حتى أصل إليهم.

بدا الضابط في ذروة عصبيته، وهو يسألها:

ـ كيف علمتِ؟! ولِمَ لَم تجيبي سؤال والدك؟!

مرة أخرى، نقلت عينيها إليه، مجيبة بنفس الشرود:

ـ هم أخبروني.

غمغم والدها، وقد أصابه الارتياع لموقف ابنته:

ـ ومن هم الذين أخبروك؟!

تطلعت إليه لحظة، من دون أية انفعالات، وهي تجيب:

ـ لست أدري.

تراجع الكل في دهشة بالغة، تعاظمت عندما وثبت بجسدها الضئيل خارج المركبة، مستطردة بنفس الهدوء الشديد:

ـ سرعة الإنسان العادي، ستة كيلومترات في الساعة الواحدة[1]، ولو أسرعنا الخطى قليلًا، فسنصل إلى مكان اللقاء، عبر ربع الساعة أو أقل، سيرًا على الأقدام.

ومن دون أن تلتفت إليهم، بدأت سيرها بالفعل، مكملة:

ـ هيا بنا.. الوقت يمضي في سرعة.

وتضاعف ذهولهم، إلا أنهم تبعوها في صمت..

---

(١) حقيقة علمية.

حتى الضابط نفسه، لم ينطق حرفًا..

أي حرف.

* * *

ـ من زرع تلك الذرَّات إذن؟!

هتف الدكتور أحمد بالعبارة، بكل دهشة الدنيا، وشاركه الكل دهشته، في حين بدا الجواب هادئًا، وهو يغزو عقولهم جميعًا في آنٍ واحد:

ـ غزاة من عالم آخر، تفصل كوكبهم عن الأرض سنوات ضوئية عديدة[1].. أتوا إلى هنا منذ مئات السنين، وكان عددهم أقل من أن ينجح في غزو الأرض، التي تحوي كثيرًا من الخامات، التي يفتقدون إليها في عالمهم، ولهذا وضعوا خطة أخرى، لغزو الكوكب، بعد أن يصير خرابًا، ويدمر سكانه بعضهم بعضًا.. ولهذا عادت مركبتهم الأم إلى عالمهم، وتركوا على الأرض بعض جواسيسهم، مع أجهزة شديدة التطور؛ لزرع تلك الذرات في العقول، حتى يمكنهم أن يأسروا العدد الأعظم من سكان الكوكب، حتى تصل المركبات التالية، بعد مئات السنين بزمن الأرض، فتسيطر أعدادها القليلة على عقول جزء كبير من سكانه، وتدفعهم إلى شن الحروب الطاحنة، بعضهم على بعض، فيفنى

(١) السنة الضوئية: وحدة فلكية، تعني المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة، علمًا بأن سرعة الضوء، تساوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة.

البشر أو يكادون، وعندئذٍ يسهل عليهم غزو الكوكب، والفوز بخاماته، النادرة، غير الموجودة في عالمهم.

قاطع نائب الرئيس ذلك الحوار العقلي، متسائلًا في شك:

- ولكن مهلًا.. لو أنهم يفوقوننا تكنولوجيًّا إلى هذا الحد، فلماذا لم يرسلوا جيشًا لغزونا، بدلًا من هذه الخطة شديدة التعقيد؟!

أتاهم الجواب حازمًا، عبر كل العقول:

- إرسال جيش كامل، عبر أكثر من خمسين سنة ضوئية، أمر يفوق قدرات التكنولوجيا.. إنه يتعلق بالإمكانات المادية أيضًا.

غمغم وكيل المخابرات العامة:

- هم يعانون من المشكلات الاقتصادية أيضًا!! هذا يعني أننا لسنا الكوكب الوحيد في الكون، الذي يعاني منها.

تمتم أركان حرب القوات المسلحة:

- ثم إنهم يتبعون السياسة الأكثر نجاحًا في كل الحروب.. دع العدو يدمِّر نفسه، بدلًا من أن تبذل الجهد في تدميره.

أتاهم الجواب العقلي:

- بالضبط.. هذا ما اتبعوه بالفعل؛ فما إن صارت مركبتهم الأم على مقربة من الأرض، عام ألفين وثلاثة وأربعين، حتى بدأت في تنفيذ مخططهم، و...

هتف الدكتور محمد، مقاطعًا في انفعال:

ـ مهلًا.. تتحدثون عن تاريخ قادم، يفوقنا بثلاثة عقود تقريبًا، كما لو أنه من أحداث الماضي! أيعني هذا ما أتصوره؟!

كان ما هتف به هو ما دار بالفعل في رؤوس الجميع، حتى إن أحد عالمي مركز الأبحاث، غمغم في عصبية واضحة:

ـ أأنتم تسافرون عبر الزمن؟!

أتاه الجواب العقلي في سرعة:

ـ بالفعل.. لقد عبرنا الزمن؛ لتحذيركم مما ينتظركم، خصوصًا أن الأحداث كلها ستبدأ من هنا.. من مصر.

كان هذا يفوق إدراك معظم الموجودين، في حين غمغم الدكتور محمد، في انفعال شديد:

ـ إذن فنظرية «أينشتين» عن الزمن حقيقية، وتجارب «تشيرنوبروف» ستؤتي ثمارها، والبشر سيمكنهم يومًا السفر عبر الزمن، إلى الماضي والمستقبل!!

جاءهم الجواب بصدمة جديدة:

ـ كلَّا.. البشر سيمكنهم السفر عبر الزمن للمستقبل فقط؛ لأن أجسادهم لا تحتمل طاقة السفر إلى ماضيهم، ولهذا حرص صانعونا على أن يتكيف تركيبنا مع السفر إلى الماضي.

كانت المفاجآت تتوالى، على نحوٍ شعر معه الجميع بحالة من

الإرهاق الشديد، وكأنهم كانوا يَعْدُون بلا توقف، لمسافات طويلة للغاية، فراح بعضهم يلهث على نحو عجيب، في حين جفَّت حلوق البعض الآخر، إلى حد منعهم من الحديث.

وبصعوبة شديدة، غمغم الدكتور أحمد، في صوت محتقن:

ـ ولكن من؟! من صنعكم، وأرسلكم لتحذيرنا؟!

مضت لحظة من الصمت، بدت للجميع أشبه بالدهر، قبل أن يأتيهم الجواب، لينسف ما تبقى من عقولهم:

ـ أنتم.. أنتم أرسلتمونا.

وكانت أقوى صدمة..

بكل معنى الكلمة.

١٦

ـ مادة غير معروفة.

نطقها خبير الحرب الكيماوية، المصاحب للفرقة التي تحيط بالمنطقة «صفر»، من دون أن يستطيع، أو حتى يحاول إخفاء توتره الشديد، فانعقد حاجبًا قائد القوات في شدة، وهو يقول في حدة:

ـ أي قول هذا؟! المفترض أنك الخبير هنا!!

أجابه الرجل بنفس الحدة:

ـ ولهذا قلت ما قلته.. إنها المرة الأولى في حياتي، التي أتعامل فيها، أو حتى أقرأ عن مادة لها مثل هذه الخواص! لقد بدت تلك الفقاعة شديدة المرونة، وشبه شفافة، عندما هبطت على الرمال، ولكن ما إن احتوت فريق اللقاء، حتى صارت جدرانها أشبه بمرآة لامعة، شديدة الصلابة.. وشديدة الصلادة أيضًا[1]،

(١) الصلابة هي قدرة المادة على كسر غيرها من السطوح، أما الصلادة، فهي قدرة

حتى إن الرجال لم يفلحوا في اختراقها، باستخدام قاطع الماس نفسه.

قال قائد القوات، في عصبية يائسة:

ـ وماذا لو استخدمنا المدافع؟!

أشار خبير الحرب الكيماوية بيده، مجيبًا:

ـ أولًا، المدافع كلها لم تعد تعمل، منذ هبطت تلك الفقاعة هنا، وثانيًا، لو افترضنا أنها تعمل، فهل من الحكمة أن ننسف تلك الفقاعة، بافتراض أننا قادرون على هذا، من دون أن ننسف معها رجالنا في داخلها.

أُسقط في يد قائد القوات، فاحتقن وجهه، وهو يغمغم، في عصبية أكثر، ويأس أكبر:

ـ هل سنكتفي بالوقوف هنا ساكنين إذن؟!

غمغم خبير الحرب الكيماوية:

ـ ربما كان هذا أفضل ما يمكننا فعله الآن.

وتبادل الرجلان نظرة يائسة، بائسة، مستسلمة، من دون أن يضيف أحدهما حرفًا واحدًا، ومن دون أن يدري أحدهما أن الموقف داخل الفقاعة، لم يكن يختلف عن موقفهما.

المادة على خدش غيرها من السطوح، ومن هذا المنطلق يكون الصلب أكثر صلابة من الزجاج، ولكن الزجاج أكثر صلادة من الصلب.

فهناك، وعقب عبارة ذلك الشيء الأخيرة، ساد صمت ذاهل داخل الفقاعة..

صمت دام دقيقة.. أو ربما دقيقتين، فلا أحد داخلها يمكنه الحزم.

المهم أنه في النهاية، قطع الدكتور محمد ذلك الصمت الرهيب، وهو يغمغم في انفعال:

ـ نحن أرسلناكم؟!

أتاهم الجواب عبر عقولهم على الفور:

ـ بعد أن فَنِيت الحياة على الأرض أو كادت، وبالتحديد في السادس والعشرين من ديسمبر، عام ألفين وواحد وخمسين، أدرك بعض العلماء، الذين بقَوْا على قيد الحياة، والذين يجلسون في انتظار الموت المحتوم، أن الأمل في إنقاذ الأرض في زمنهم قد مضى وولَّى، وعندئذٍ، اقترح أحدهم فكرة صنعنا، وإرسالنا إلى زمن ما قبل بدء الكارثة؛ لنحذركم، ونخبركم كيف ستكون البداية.

مرة أخرى، ساد الصمت داخل القاعة، حتى غمغم نائب الرئيس بكل توتره وانفعاله:

ـ رباه! وكأنني أشاهد فيلمًا من أفلام الخيال العلمي.

قال الدكتور أحمد في بطء:

ـ القاعدة تقول: «ما يبدو اليوم أشبه بالخيال، ربما يصبح غدًا مجرد حقيقة بسيطة، يدرسها الأطفال في كتب العلوم».

أشار الدكتور محمد بيده، مضيفًا في توتر:

ـ هذا ما عهدناه دومًا.. ففي شبابي، شاهدت فيلمًا يعرف باسم «ألفين وواحد أوديسا الفضاء»، وفيه كان الروبوت مجرد خيال، والسفر خارج حدود جاذبية الأرض حلمًا.. وكان أبطال الفيلم يستخدمون لوحًا رفيعًا، تظهر عليه الصور والمعلومات، وهو ما صار اليوم في يد كل من يستطيع شراءه، من المستهلكين العاديين.

اندفع أركان حرب القوات المسلحة، يسأل في اهتمام مشوب بالتوتر:

ـ ما دام من صنعكم وأرسلكم بشر مثلنا، فلماذا لم يصنعكم على شاكلتنا، وليس على هذه الهيئة العجيبة المخيفة؟!

بدا الجواب العقلي غامضًا:

ـ كانت هذه رسالة.

تساءل أحد عالمي مركز الأبحاث:

ـ أية رسالة؟

صدمه الجواب العقلي التالي:

ـ لقد صنعونا على هيئة الغزاة.

اتسعت عينا الدكتور محمد عن آخرهما، في حين هتف الدكتور أحمد:

ـ أتعني أنهم يشبهونكم؟!

أتاه الجواب، عبر تلافيف مخه:

- تمام الشبه.

تبادل الكل نظرة شديدة التوتر، قبل أن يقول الدكتور محمد، في توتر يمتزج بالصرامة، في تركيبة عجيبة:

- هذا يقودني إلى سؤال، كنت أنتوي طرحه فيما بعد.. أيعني هذا أن من فاجأنا في حجرة الميكروسكوب الإلكتروني، واستولى على عينة الخلايا، لم يكن...

لم يتم عبارته؛ لأن الجواب صدم عقله، قبل حتى أن يُتمَّها:

- لم يكن أحدنا.. لقد كان أحدهم.

سَرَتْ قشعريرة عجيبة، في جسدي العالِمين، عندما أدركا أنهما قد واجها بالفعل أحد جواسيس الغزاة، وتبادلًا نظرة مضطربة، قبل أن يجذبهما قول ضابط الحرس الجمهوري، والذي ظل صامتًا منذ البداية:

- ولماذا الآن؟! لماذا اخترتم هذا الزمن بالذات لتحذيرنا؟!

سادت فترة من الصمت، لو أن الوصف ينطبق على حوار عقلي مباشر، ثم أتاهم الجواب:

- في هذا الزمن، تتخذ الأحداث ذلك المنحنى، القادر على بدء المقاومة.

هتف الدكتور أحمد:

- أي مُنحنى؟!

أدار الآليان عيونهما إليه، مع ذلك الجواب المباشر:

ـ لقد كانت المرة الأولى، التي يتم فيها استئصال خلايا صرعية، تحوي ذرة من ذرات الأسر.

تراجع الدكتور أحمد خطوة، وهو يغمغم مبهورًا:

ـ البداية إذن كانت مع الصرع.

أتاهم جواب عجيب عبر عقولهم:

ـ والنهاية كذلك.

هتف نائب قائد قوات الدفاع الجوي:

ـ ماذا تعني؟!

بدا الجواب العقلي أكثر عمقًا، ويحمل نبرة احترام واضحة:

ـ الذي اقترح فكرة إرسالنا إلى هنا، ووضع الخطة الكاملة لمحاولة إنقاذ مستقبل الأرض، هو الدكتور أحمد.

هتف الدكتور أحمد مبهوتًا:

ـ أنا؟!

صدمه الجواب:

ـ لا.. لست أنت.. من نعنيه هو عالم فيزيائي عبقري، يحمل الاسم نفسه.

وسادت لحظة من الصمت العقلي، ثم أتى ما يكمل الجواب:

ـ وهو لم يولد بعد.

تساءل نائب الرئيس في لهفة:

ـ ومن هو؟! متى سيولد؟! وما اسمه بالكامل؟! لو عرفناه، سيمكننا أن نحيطه بالحماية الكاملة منذ مولده.

أتاهم الجواب:

ـ لم يتم تزويدنا بتلك المعلومات.. كل ما نعلمه هو أنه ابنها.

تساءل الدكتور محمد، في صوت مضطرب:

ـ ابن مَن؟!

وانتفض جسد الدكتور أحمد في قوة، عندما أتاهم الجواب:

ـ مريضتك يا دكتور أحمد.. شيماء.. شيماء طلعت منصور.

بدا الجواب أشبه بالصدمة، وخصوصًا عندما أضاف الاتصال العقلي:

ـ والتي تستعد للانضمام إلينا.. الآن.

وكان هذا يفوق احتمال الرجال العشرة..

بكثير.

* * *

حدق قائد القوات، في دهشة مستنكرة، في شيماء ووالديها، والضابط الذي أحضرهم إلى نقطة اللقاء، قبل أن يقول في حدة:

- هل جُننت أيها العقيد؟! أنسيت المعلومات الصارمة في هذا الشأن؟!

شد الضابط قامته، وهو يجيب في حزم عسكري:

- إنني أنفذ أوامر رئيس الجمهورية، القائد الأعلى للقوات المسلحة.

أصابت الصدمة الجميع، وظهرت واضحةً في ملامح وصوت قائد القوات، وهو يغمغم، محدقًا مرة أخرى في شيماء ووالديها:

- أوامر سيادة الرئيس؟!

لم يبدُ على شيماء أنها حتى قد سمعته، وهي تتطلع إلى تلك الفقاعة اللامعة في هدوء، وكأنما لم تعد ترى سواها.

والداها والضابط المصاحب لهما كانوا يحدقون أيضًا في تلك الفقاعة، في ذهول وتوتر بالِغَينِ، ولكنها وحدها قامت بالخطوة التالية.

لقد انفصلت عن ثلاثتهم، واتجهت مباشرة نحو تلك الفقاعة، فهتفت بها أمها في ذعر ملتاع:

- لا يا شيماء.. لا تقتربي منها.

كانت تهمُّ بالاندفاع نحوها، عندما أمسك طلعت معصمها في قوة؛ ليمنعها من هذا، وهو يقول في حزم، لم يخل من التوتر:

- إننا لم نقطع كل هذه المسافة، لنمنعها في اللحظة الأخيرة.

هتفت، محاولة التملُّص من قبضته:

ـ وماذا لو.

قاطعها بنفس اللهجة:

ـ إنه قدرها.

وأطلق زفرة ملتهبة، من أعمق أعماق صدره، قبل أن يجيب:

ـ وقدرنا.

حاولت مرة أخرى التملُّص من قبضته، إلا أنه شدد ضغطه على معصمها، فانحدرت الدموع من عينيها، وهي ترتجف، هاتفةً بصوت خافت:

ـ شيماء.

أما شيماء نفسها، والتي لم يعترض طريقها أحد، فقد واصلت سيرها، حتى بلغت ذلك الجدار الصلب الصلد للفقاعة، ومدَّت يدها الصغيرة نحوها، و...

واتسعت عيون الكل في ذهول..

وشهقت والدتها في قوة..

فالجدار شديد الصلابة والصلادة، لَانَ فجأة تحت لمسة أصابعها، التي غاصت فيه، كما لو أنه مصنوع من لا شيء على الإطلاق، فدفعت هي جسدها، وعبرته في نعومة مذهلة.

وفور اختفائها خلفه، استعاد على الفور صلابته وصلادته ولمعانه الشديد.

وفي الداخل، فوجئ الرجال العشرة أيضًا بما حدث، فحدقت عيونهم جميعًا نحو الفتاة، التي لم يبد أنها قد لمحت واحدًا منهم، وهي تتجه مباشرة نحو الآليينِ، وترفع وجهها إليهما..

وتبتسم.

وعبر عقول الجميع، وصلتهم رسالة عقلية هادئة:

ـ لقد حاولنا أن نفعل هذا مع الدكتور أحمد، ولكن تلك المادة السامة التي نفثها من فمه، أعاقت الاتصال، قبل أن يكتمل.

شعر الدكتور أحمد بحرج بلا حدود، في حين عقد الدكتور محمد حاجبيه، وهو يقول في توتر صارم:

ـ أرأيت؟!

غمغم الدكتور أحمد، في لهجة مماثلة:

ـ أنت تربح.

مع قوله، رفعت شيماء يديها الصغيرتين نحو الآليينِ، فمد كل منهما يده، ذات الأصابع الستة، وأمسكا كفيها.

وعندئذٍ كانت المفاجأة الكبرى.

شيماء أغلقت عينيها في قوة، وراح جسدها يرتجف في شدة، في

حين تألق الآليانِ، على نحو عجيب، وتألقت معهما جدران الفقاعة، والقاعة كلها، على نحو يَغشى الأبصار، مما اضطر الجميع إلى إغلاق عيونهم مرغَمين.

ودوتْ تلك الفرقعة مرة أخرى.

ومع دويِّها الشديد، الذي كاد يصم آذان مَن خارجها، تلاشى كل شيء دفعة واحدة..

اختفت الفقاعة..

واختفى الآليانِ..

واختفت الفقاعة نفسها.

ومع الهرج والمرج الشديدين، فتح الرجال العشرة عيونهم..

واتسعت العيون عن آخرها.

كانوا جميعًا يقفون على الرمال، وعدد من رجال القوات المسلحة يندفع نحوهم في توتر.

أما شيماء فكانت تقف أشبه بالنائمة، وعيناها مغلقتان، ووجهها إلى أسفل..

وبكل لهفة ولوعة الدنيا، اندفع نحوها والداها، واحتضناها بشدة، ووالدتها تهتف، وسط فيض من الدموع:

ـ أأنت بخير؟!

رفعت شيماء رأسها في بطء، وفتحت عينيها تتطلع إليهما، وإلى ذلك الحشد المحيط بهم، قائلة بكل هدوء:

ـ لم أكن يومًا أفضل.

ومع دوي سِرْب المقاتلات، الذي عبر فوق رؤوسهم، أدرك الكل أن ذلك اللقاء التاريخي المذهل قد انتهى..

تمامًا.

* * *

ـ لست أدري كيف أشكركما..

ابتسامة كبيرة، ملأت وجه رئيس الجمهورية، وهو ينطق عبارته، مصافِحًا العالِمينِ المصريينِ، فقال الدكتور أحمد في حياء:

ـ لم نقم إلا بواجبنا.

وأضاف الدكتور محمد في شيء من التوتر:

ـ ولم نكن ندرك حتى أنه سيقودنا إلى كل هذا.

ربَّت الرئيس على كتفه، قائلًا:

ـ أعلم أن أبحاثكما كانت تدور حول علاج جراحي لمرض الصرع، إلا أن القدر له تصاريف، لا يمكن التنبؤ بها.

هزَّ الدكتور أحمد كتفيه، وهو يقول:

ـ كل شيء خالف ما يمكن التنبؤ به، منذ بدأت تلك الأحداث.

أومأ الرئيس برأسه إيجابًا، ثم عاد إلى ما خلف مكتبه، وهو يقول في جدية:

ـ لو أن أحدًا أخبرني، قبل ترشحي لهذا المنصب، أنني سأواجه كل هذا، لاعتبرته مخرِّفًا، ولما صدَّقتُ حرفًا واحدًا مما يقول.

قال الدكتور محمد بنفس توتره:

ـ الحقيقة دومًا ما تفوق كل خيال.. حتى عندما أطلقت لخيالي العنان، وتصورت أننا نواجه كائنات من عالم آخر، باغتانا بأنهما مرسلان من مستقبلنا.

أضاف الدكتور أحمد في خفوت:

ـ ولإنقاذ مستقبلنا.

مرة أخرى، أومأ الرئيس برأسه إيجابًا، وهو يقول في حزم مهموم:

ـ لو استطعنا هذا.

ران على ثلاثتهم الصمت بضع لحظات، قبل أن يقول الدكتور محمد:

ـ وفقًا لفلسفة السفر عبر الزمن، من الخطر محاولة تغيير أحداث التاريخ؛ لأن هذا يؤدي إلى ما يعرف علميًّا بتأثير الفراشة.

انعقد حاجبا الرئيس، وهو يتساءل في قلق:

ـ الفراشة؟!

أجابه الدكتور أحمد، وقد استعاد ثقته العلمية، ونفض عنه حياءه:

ـ إنها نظرية مأخوذة عن رواية من روايات الخيال العلمي، التي تحدثت عن أناس سافروا عبر الزمن إلى الماضي، وقتل أحدهم فراشة صغيرة، ثم عادوا إلى حاضرهم، ليجدوا أن حاضرهم كله قد تغير، بسبب مقتل تلك الفراشة[1].

حاول الرئيس أن يبتسم، وهو يغمغم:

ـ خيال علمي مرة أخرى!

أجابه الدكتور محمد، وقد خفَّ توتره:

ـ بل نظرية علمية متكاملة يا سيادة الرئيس، ابتكرها «إدوارد لورينتز»، عام ١٩٦٣م، وتعبير تأثر الفراشة هذا مجرد تعبير مجازي، يصف الظواهر ذات الترابطات والتأثيرات المتبادلة والمتواترة، التي تنجم عن حدث أولي، ربما يبدو بسيطًا في حد ذاته، ولكن تنشأ عنه سلسلة من التداعيات، التي تفوق في حجمها حجم الحدث الأولي بمراحل، وربما في أبعد أماكن يمكن تصورها[2].

بدا الرئيس جامدًا لحظات، قبل أن يميل على مكتبه، متسائلًا:

ـ أهذا تأثير الفراشة؟!

أشار الدكتور أحمد بيده، قائلًا:

---

(١) حقيقة علمية.

(٢) حقيقة علمية.

ـ نعم، فرفرة جناحي فراشة في الصين مثلًا، قد تؤدي تعدياتها غير المتوقعة، إلى فيضانات في أفريقيا.

لوَّح الدكتور محمد بسبَّابته، مضيفًا في حماس:

ـ ولهذا من الخطر محاولة تغيير الماضي.

اعتدل الرئيس مرة أخرى، وبدت على شفتيه ابتسامة باهتة، وهو يقول:

ـ ليس في حالتنا.

تطلع إليه العالمان في تساؤل، فأشار بيده، مضيفًا:

ـ لو أن الفناء هو ما ينتظر مستقبلنا، فأي خطر يمكن أن يفوق هذا؟!

تبادل العالمان نظرة صامتة، قبل أن يغمغم الدكتور محمد، في شيء من العصبية:

ـ أنت على حق في هذا يا سيادة الرئيس.

أومأ الرئيس برأسه، ثم ابتسم، قائلًا:

ـ ولكن حديثكما أكد لي أنني قد اتخذت القرار الصحيح.

غمغم الدكتور أحمد في فضول:

ـ بشأن المستقبل؟

أجابه الرئيس، وهو ينهض من خلف مكتبه:

ـ بل بشأنكما.

ثم شد قامته، مضيفًا في حزم:

ـ لقد أصدرت قرارًا بتعيينكما مستشارين عِلميين أساسيين لي، وستتوليان منصبكما الجديد، اعتبارًا من صباح الغد.

وابتسم ابتسامة باهتة، مضيفًا:

ـ أو بعد ساعات، باعتبار أننا ننتظر شروق الشمس بالفعل.

بدت الدهشة، على وجه الدكتور أحمد، في حين غمغم الدكتور محمد، في شيء من العصبية:

ـ معذرة يا سيادة الرئيس، ولكنني أُفضِّل البقاء في معملي.

غمغم الدكتور أحمد:

ـ وأنا كذلك.. أُفضِّل الاستمرار في عملي، كجرَّاح للمخ والأعصاب.

أجابهما الرئيس:

ـ ستُواصلان عملكما، ولكن بإمكانات أكبر، وتحت رعاية كافة مؤسسات الدولة.

وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:

ـ لقد أصبحتما مسؤولين عن مستقبلنا كله.

مد يده ليصافحهما مرة أخرى، فصافحه الدكتور أحمد، وهو يسأله في قلق:

ـ وماذا عن شيماء؟!

أجابه الرئيس في حسم:

ـ إنها تتعاون معنا بشكل كامل، ولقد قام فريق طبي علمي بفحصها، بأحدث الأجهزة المعروفة، وعلى الرغم مما وصفتماه، فكل شيء فيها يعمل على نحو طبيعي تمامًا.. أما والدها، فقد تم تكليفه وشركته ببناء عدد كبير من أبراج البث، التي ستبث الإشارة العكسية، التي ابتكرتها يا دكتور محمد؛ لمنع سيطرة الغزاة على عقول من تمت زراعة ذرَّات الأسر في أمخاخهم.. ونحن الآن بصدد إيجاد وسيلة للتعاون مع باقي دول العالم؛ لمواجهة ذلك الغزو القادم، والبحث عن جواسيس الغزاة فيما بيننا.. إننا نعرف الآن كيف يبدون، وبم يتميزون، وكيف يعدُّون خطتهم، وهذا سيُحدث حتمًا تغييرًا كبيرًا، في مسار الزمن حتمًا.. وفي مستقبل الأرض.

ظلت عبارته الأخيرة تتردد في رأسِي العالِمين، وهما يغادران القصر الجمهوري، في صمت تام، قبل أن يقطعه الدكتور محمد، مغمغمًا:

ـ أظنك أكثر مَن رَبح، في هذه القصة كلها.. المراجع العلمية ستشيد بالعملية الجراحية الجديدة؛ لعلاج مرض الصرع، ولم تعد تعاني من ضعف النظر، الذي لازمك منذ حداثتك، والأهم أنك تخلصت من عادة التدخين السخيفة تلك.

لم يسمع منه تعليقًا، فالتفت إليه، يسأله:

ـ دكتور أحمد.. هل سمعت ما قلته؟!

انتفض الدكتور أحمد انتفاضة خفيفة، والتفت إليه، وكأنما يفيق من شرود عميق، ثم قال:

ـ معذرة يا دكتور محمد، ولكن عقلي انشغل عنك لحظات.

سأله في اهتمام:

ـ إلى أين ذهب؟!

تنهد الدكتور أحمد تنهيدة عميقة، قبل أن يقول مجيبًا:

ـ كنت أتساءل: «مع كل ما عرفناه، وكل ما مررنا به، هل يمكن أن ننجح حقًّا، في تغيير مستقبل الأرض؟!».

أجابه الدكتور محمد في سرعة وحزم:

ـ بالتأكيد.

التفت إليه مندهشًا، من هذه الثقة الزائدة، فأضاف الدكتور محمد بنفس الحزم:

ـ انظر حولك يا رجل.. إننا في الحاضر، وحتى هذه اللحظة، بالنسبة إلى زمننا، المستقبل لم يكتب بعد.

غمغم الدكتور أحمد:

ـ ولكن وفقًا لفلسفة السفر عبر الزمن، فلو أننا أحبطنا ذلك الغزو المنتظَر، فلن تتعرض الأرض للفناء، ولن يرسل ابن شيماء تحذيره إلينا، وبالتالي لن...

قاطعه الدكتور محمد، في حزم أكبر:

ـ عش حاضرك وأدِّ واجبك يا هذا.. وانْسَ فلسفة الزمن؛ فلن ننجح في فهمها قط، بمعارفنا الحالية على الأقل، وتذكَّرْ فقط خالق

الزمن جلَّ جلاله، وخالق الكون كله، بحاضره ومستقبله.. هو وحده ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم كيف سيكون المستقبل.

ومع قوله هذا، كانت الشمس تشرق من خلف البنايات العالية، ليفوق ضياؤها ضياء مصابيح الطريق، ولتلقي أشعتها الذهبية على الأرض.

بحاضرها..

ومستقبلها..

وأملها..

كله.

القاهرة

٢٧ أغسطس ٢٠١٢